السعلوكي في بلاد الأفريكي

محمود السعدني

السعلوكي في بلاد الأفريكي

تأليف
محمود السعدني

هنـــداوي

السعلوكي في بلاد الأفريكي

محمود السعدني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٢ ٣٢٠٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

المحتويات

السعلوكي والصعلوكي	٧
عبيد ليفربول ... أكثر سوادًا	٢١
والجدْعَنة انهزمَت يا ولداه	٢٩
أميرة ... ولكن في المنام	٣٧
الفنان والعبيط والشيخ علي في أفريكيا	٤٧
يا جيش النمل ... مليون سلامة	٥٥
دخانيق ... وسراديب ... وبؤر	٦٣
الجنة ... ومبرات ... والست أبابا	٧١
الغروب ... وبعد الغروب	٧٩
يا حضرات الكويرة ... ويلٌ لكم من أفريقيا	٨٧
وداعًا بهجتي ... عمتي ... أفريقيا	٩٧
المندكورو في الخرطوم	١٠٥
وتوتى توتى ... وما خلصت الحدوتى	١٠٩

السعلوكي والصعلوكي

في البداية ... وأنا راكب في الطيارة الروسي الضخمة كما عمارة روزاليوسف، تعبُر بالعبد لله بحرَ الرمال الواسع الشاسع الذي ليس له بُرُور، قاطعةً قارة الثروات والثورات؛ أفريقيا، أمُّنا وحبُّنا، في هذه اللحظة بالذات وأنا أُلقي نظرةً خائفة من ارتفاع عشرة كيلومترات على الصحراء الأفريقية الكبرى، وأبخِرةٌ تتصاعد وتندفع مع الريح على وجه الرمال المُحرِقة، والشمس فوق في العلالي، كما فُرْن بلدِي مُولَّع منذ عديدٍ من الأزمنة.

والجوُّ في الطيارة حر يَشوي الوجوه والجلود رغم الضغط وتكييف الهواء ... في هذه اللحظة بالذات قررْت تغيير اسم السلسلة التي أنوي كتابتها من الصعلوكي في بلاد الأفريكي ... إلى السعلوكي في بلاد الأفريكي ... ذلك لأن هناك فارقًا عميقًا بين المعنيَين! ... فالصعلوك كلمةٌ عربيةٌ فخيمةٌ لها رنين ... كان العربي يتصعلك عندما تزجُره القبيلة التي ينتمي إليها ... تطرده من ديارها وتُطارده كما الكلب الجربان وتهدر دمَه، فيصبح كما وحشٍ في الصحراء مَن يَلقاه يقتله وله الأجر والثواب عند الله! وكان الصعلوك من دُول إذا قرَّر أن يتصعلك سحَب هراديبه ودواوينه معًا ... فقد كان أغلبهم شعراء ... وسار متخفِّيًا في الليل ... يَضرِب وحيدًا في الصحراء حتى يلقى صعاليك أمثالَه فيصبح واحدًا منهم، يشتمون الناس ويسبُّون الأقربين والأبعدين ... يَسْطون على القوافل، ليس من باب السرقة ولكن من باب الشقاوَة والمزاج ... وهكذا أصبح الصعاليك وصفَ تحقيرٍ للمتمردين من أبناء القبائل. فالشخص يتصعلك أي: يتمرَّد ... أي: يثور ... فهم ثُوَّار ولكن بلا ثورة، وقُوَّاد بلا جيوش، وأصحاب نظرةٍ اجتماعية من غير مجتمع. واشتُهر من بينهم كثيرون، ربما لو تأخر بهم الزمان إلى زمنٍ آخَر قريبٍ لصار لبعضهم شأن في الفن، ولَصار لبعضهم شأن في الخطف ... فلقد كان من بينهم فنانون مثل عروة وتأبط شرًّا. وكان من بينهم

حرامية وَلَا المَرحُوم الخُط، من بينهم دبيب ... لأنه كان إذا سار على الرمال دَبَّ كأنه بقرةٌ سمينة تستحق الحلْب!

الصعلوكي إذن لا تنطبق على العبد لله ... ها أنا ذا راكب في طيارة وَلَا عمارة روزاليوسف، أنيقة كما المَركَب إيزيس، مريحة كما سيارة رولز رويس، أمان ولا بيت على الأرض! صحيح ليس فيها ليمونادة، وليس فيها شيكولاتة ... والأكل فيها بعيد عن السامعين، ولكن فيها الشيء المهم والأهم، هو أنك تركب فيها وأنت واثِق ابْن واثِق أنك نازِل منها بإذن الله على وشِّ الأرض ... وأنك لو قُدِّر لك الموت فيها فستموت بالسكتة أو بالجلطة أو بالجوع!

أنا إذن راكب مجْعُوص على كرسي جلْد منفوخ محشُو بريش النعام، أو لعلَّه ريش الطاووس، وتكييف الهوا شغَّال، وفي يدي جريدة، وبين أصابعي سيجارة، وفي جيب بنطلوني ولَّاعة رونسون آخر طراز، لهفها مني واحد صَدِيق الله يسامحه ويرحم والديه ... وفي جيب جاكتتي عُملة صعبة، جنيه إسترليني على دولار أمريكي على فرنك سويسري، وحالتي بُمب والأشيا عال، وكل شيء على ما يُرام ... ومع ذلك فأنا خائف كحرامي، مُرتعد ككلب مبلول، مذعور كفأر مسلوخ عكمته قطة بَرَاها الجوع! أنظُر بحسد إلى الصحراء الكبيرة تحت مني، أتمنى لو كنت واحدًا من رجال الطوارق، سارِح بجملي في النهار أقطَع بحر الرمال الشاسع الواسع على مهلي، أفكِّر أحيانًا، وأشعُر أحيانًا، وأسرَح أحيانًا ... ولكن قلبي مطمئن أنه مهما طال الزمن فأنا حتمًا واصل بإذن ربي! لماذا العجَلة التي هي من الشيطان؟ حِكمة أجدادي الأزلية والأبدية ... كأنهم كانوا يقرءون الغيب، كأنهم كانوا — عندما نطقوها — يفتحون المندل، العجلة من الشيطان، أيُّ عجَلة ... عجلة بسكليت، عجلة موتوسيكل، عجلة لوري، عجلة ترماي، عجلة طيارة، المهم لا تركب عجلة واركب الصعب؛ فالعجلة ما أخطرها! لأنه ما أغدرها! ليس أعظم من القدَم مركوبًا مأمونًا بإذن ربي، واركب قدمًا فأنت واصل في أمان الله، قدَم حمار حصاوي، قدَم جمل هجين، قدَم حصان سيسي، المهم قدَم والسلام. وقد يقول قائل: ما قولك — دام فضلك — تركب قدمك فيلهفك ترام، أو يدوس عليك ترولي باس، أو يمسح بك الشارع أوتوبيس؟ وجوابي على هذا السائل الفاضل أن الذي قتلك ليس قدمك ولكنها العجلة. والعجلة من الشيطان، وويلٌ لك إذا ركبتَ العجلة وويلٌ لك إذا ركبَت العجلةُ عليك! أنا خائف إذن، فأنا لسْت صعلوكًا؛ لأن الصعلوك متمرِّد والمتمرِّد لا يخاف. أنا لسْت صعلوكًا، إذن من أكون؟ ليس في اللغة العربية كلمة تنطبق على حالي، ولكن السِّت والدتنا نحتَت كلمةً في العربية تستحق أن تدخُل في القاموس ... ولو

ذاعَت وشاعَت لاستحقَّت أمي عنها حقَّ أداءٍ علني كما الشاعر الغنائي مأمون الشناوي، كانت أمي تُطلِق على الصايع المشاغِب كلمة شضلي ... وعلى الصايع المسالِم كلمة سعلوك ... ليس أفضل من سعلوك تُطلَق على العبد لله في مثل هذا الموقف ... وهي كلمةٌ ذكية لم تُكلِّف أمي إلا تغيير حرفٍ واحد فقلبَت المعنى رأسًا على عقِب. السعلوك إذن هو صعلوك، ولكن بالمقلوب، السعلوك هو صعلوك مقلوب زرع بصل، والسعلوك صعلوك ولكن غلبان، صعلوك ولكن مسالِم، صعلوك ولكن في طيارة روسي جبارة تعبُر بحر الرمال الواسع الشاسع إلى قلب أفريكيا، السعلوك صعلوك ولكن اسمه محمود السعدني.

أنا صعلوك إذن، ولكنني سعلوك وخائف جدًّا ... درجة خوفي وأنا في الطيارة تجعلني أبحث عن وصفٍ آخر غير السعلوك، ولكن في ساعة الخوف لا يُحسن الإنسان التفكير الحسَن! ... إذن يكفي جدًّا إضافة حرف الياء على السعلوك لأُصبِح: سعلوكي، وهي كلمة تؤدي المعنى تمامًا، فأنا سعلوك، أي أنا سعلوك خائف خوفَ الإبل، ولو كان زكريا الحجاوي معي في الطائرة أو الخميسي أو محمد علوان لأضفْت على الكلمة واوًا ونونًا فتصبح: سعلوكون؛ لأن كلًّا منهم جمْع سعلوك! ولو كان معي واحد منهم في الطائرة لمات فيها قبل أن نعبُر الصحراء الواسعة من شدَّة الرعب الأزلي!

ما علينا ... فقد انتهت الفذلكة التاريخية حول صعلوكي وسعلوكي، وأنا الآن في طريقي إلى أفريكيا، أنا السعلوكي كما اتفقْنا، ومعي كتابٌ عن أفريكيا، وفي رأسي أوهامٌ عنها ... وفي جيبي شهادات تطعيم تكفي قبيلةً لأتجنَّب شُرور وحرور أفريكيا؛ شهادة تطعيم ضد الحمَّى الصفراء، وشهادة ضد الجدري، وشهادة ضد الزهري، وشهادة ضد أمراض أخرى كثيرة لم أسمع بها ولم أسمع عنها من قبل! وأنا — والحق أقول — أعبُر بحر المانش ولا تنغرز في بدني إبرة، أنا أخاف الحُقَن كما يخاف الطفل من أبو رجْل مسْلوخة! ولذلك فكرْت أن أتمرَّد، هممْت أن أصبح صعلوكًا فلا أتناول حقنةً ولا شهادةً وأركب الطائرة وأتوكَّل على الله!

هذا التخويف الشديد جعلني أرتاب في الأمر، هل أفريقيا ثورة أمراضٍ فتَّاكة، وميكروباتٍ عضَّاضة، والداخل فيها مفقود، والخارج منها مولود بإذن الله!

هل صحيح أن فيها بعوضة تلبد في الجسم الواحد لا تتركه إلا إذا مصَّت دمه؟ وذبابةٌ إذا لطشَت النفَر منَّا نام ... وارتمى بين الظلام على رأي كامل الشناوي؟ هل فيها سحلية إذا عكشَت في ساق راجِل لا تتركه إلا في قرافة الإمام؟ ... وهل فيها عقارب صفراء إذا هرشَت سخص من السخوصة أمثالي فيا رحمة ربي عليه؟!

طيب، لو كانت أحراش أفريقيا كلها عقارب وأنهارها كلها تماسيح، وأعشابها تحت منها سحالي، وجوُّها كله بعُوض وذبابٌ قاتل ... إذن كيف ذهب الأخ ستانلي والأخ ليفنجستون؟ ... وكيف سافَر إليها أول رجل أبيض في الزمن الغابر البعيد؛ ينهَبُ منها ذهبًا أصفر وعاجًا أبيض ويخطف منها رجالًا كالورد، ويبيع للآخرين خرزًا ملوَّنًا وصفيحًا يشخلل وأشياء بلا قيمةٍ ومن سقط المتاع!

هل حصل ستانلي على شهادة تطعيم ضد الجدري؟ هل تناول حقنةً ضد الحُمَّى الصفراء؟ إذن كيف ذهب وعاش هناك وتزوَّج ونسل وفتح بوابة أفريقيا لكل أفَّاق، ولكل خَطَّاف، ولكل عابر سبيل أبيض، نهبوها أولاد الهرمة، وخطفوا كنوزها، وسفُّوا خيراتها، وأغلقوها في وجوهنا، وخوفونا ولا أطفال نخشى البعبع ... وقالوا حذارِ أن تذهبوا إلى أفريكيا، ففيها بعابع تأكل الناس همهم! فيها عفاريت زُرق تشفط الدم من الأبدان ... يا ماما! ... وفيها أمراض تفتك بالناس ولا فتْك القنابل الذرية!

وصدَّقنا الحكاية وانبسطْنا وقعدْنا في حدودنا، نذهب إلى أوروبا ولا نذهب إلى أفريكيا ... ونتصرمح في لندرة، واللندناوي يشتغل في أكرا ... ونسهر في باريس، والباريسي أبو مونبارناس يسهر الليل في كونكري، وهم يشفطون فلوس أفريكيا في السر وعلى المهل، ونحن نذهب إليهم نُفرغ جيوبنا عندهم ونعود! حكمة الله أنني فيلسوف، ولكن حكمة الله أيضًا أنني خوَّاف، وعقلي يرفض حكاية البعوض والذباب والسحالي، وقلبي يتنطط كفرخة في يد جزارٍ مدرَّب، ولكن لأنني سعلوكي أصيل امتثلْت للخوف، مدْت ذراعي لتندبَّ فيه أكثرُ من إبرة، وفتحْت فمي لأبتلع أكثر من حباية وأكثر من سفَّة، وملأت شنطتي بحبوب للملاريا وحبوب للكوليرا وقطرة للعين، وباستيليا للزور، ودهان لجلد الإنسان، وبودرة للرش بعد الحموم ... وتوكلْت على الله وارتديْت سروال منوفي طويل لسببين؛ السبب الأول: جغرافي، فساحل أفريقيا الغربي يعيش الآن في الشتاء، وما دام هناك شتاء فلا بد أن هناك بردًا، وما دام هناك برد فما أحلى السروال الطويل في ليالي الشتاء!

والسبب الثاني: حداقة وتفتيح عين من العبد لله! ... فهذا السروال الطويل سيحميني من البرد، وسيحميني أكثر من لَسع البعوض ... أي بعوضة ولو كانت أفريكية صحيحة لا يستطيع خرطومها اختراق هذا القماش المحلَّاوي المتين، وأي عقربة ولو كان زبانها في حدَّة لسان العبد لله فلن تستطيع لَكشي ولا هَرشي ... سيقف زبانها عند السروال، وكان الله يحب المحسنين!

وارتديْت فانلةً بكُم طويل كريشة، اشتريْت منها دستةً من سمعان برخص التراب ... وأخذْت معي بطاريةً أكشف بها طريقي وسط الدروب الضيقة في الغابة الكثيفة، وأسترشد

بها وسط الأحراش التي تُخفي الثعابين في كل خطوة، وأستضيء بها وأنا أتمدد على السرير، لعلَّ ثعبانًا ثقيل الدم يحاول الهزار السخيف معي وأنا نائم متمدد ... وسحبْت على رأسي برنيطة معدن ... فضة، لامعة ولا سرير السلطانة الوالدة، كان قد أوصاني بها صديقي عبد الحميد حمدي مدير مطافي شركة شل، قال: إنها تعكس أشعة الشمس الحارقة وتردُّها إلى الفضا البعيد. وأنها البرنيطة الوحيدة والأكيدة لتعُود لنا سالمًا غانمًا من رحلتك إلى أفريكيا، وصديقي عبد الحميد هاوي حريقة؛ حتى إنه بالنسبة للحريقة كما قَيس للستِّ ليلى، وحتى أصبح من شدَّة حُبه وغرامه للنار أن الناس في السويس شطبوا اسمه وأطلقوا عليه اسم: عبد الحميد حريقة، وليس أسعد منه في الدنيا بهذا الاسم الرومانسي الحالم اللذيذ!

المهم ... إنني دخلْت الطيارة كفارسٍ من فرسان العصر الوسيط في طريقي إلى غزوة في سبيل الإمبراطور شاهبور! لم يكن ينقصني إلا كمامة لأصبح مستوظفًا في مصلحة الوقاية المدنية من أخطار الغارات والغازات والموت السريع! لم أنسَ أيضًا أن أحصل سرًّا على مطوة مسنونة؛ لاستخدامها إذا حدثَت غارة على العبد لله وأنا في البراري البعيدة. شيء واحد نسيتُه؛ هو القردة شيتا لأصبح مثل الأخ العزيز طرزان. ليس السبب هو عدم وجود قرود في القاهرة، ولكن لسببٍ آخر هو السخص الذي هو أنا، فسأصبح مسخةً ومَضحَكةً إذا خلعْت هدومي وسط البراري والأحراش. فالأخ طرزان له بزاز ولا بزاز عمِّنا تايسون. وله شَعر مسبسب ولا شعر المطربة لطيفة. وله جعورة ولا كبير مشجعي النادي الأهلي. وأنا لو خلعْت هدومي وبانت عظامي وضلوعي وجلدي وشغتي فستطمَع في العبد لله ليس الوحوش الكاسرة، ولكن الوحوش الضعيفة. ستهاجمني السحالي والضفادع، وقد تهاجمني الفئران أيضًا؛ فأنا بالنسبة لهؤلاء جميعًا فرصة العمر ليحرزوا نصرًا على ضعف البني آدم يتغنَّى به شعراء السحالي والضفادع، من هنا وإلى يوم أن تقوم القيامة! أنا داخل تُروسي ودُروعي أصبح بقيمتي، وقد ينطلي الزور على الحيوان البريء فيظنني واحدًا من فصيلة طرزان ولكن على سبيل العيِّنة! وأنا، وكل الناس الطيبين من أبناء جيلي، لا أظن أنهم تلقوا معلوماتهم عن أفريقيا إلا بين جدران سينما مترو، عمك ظرزان ممشوق القَوام كنخلة، بارز العضلات كخوابير مَصلحة المجاري، وشَعر صدره يصلح باروكةً لمذيعة في التلفزيون العربي. وعيناه تضربان شَرارًا، وقبضَته تقتل أسدًا، وشيتا وراءه خدَّامة مطيعة! والأفريكي طويل وهايف، عريان كما ولدَته أمه، غبي كحمار الوحش، جبان كما سعلوكي، وتعابين جبارة تسرح في الليل البهيم، ولكن مطوة طرزان لها بالمرصاد، وفهودٌ

غدارة تشمشم حول الخيمة، ولكن قبضة طرزان تطرحها أرضًا، وجحافل من بشر أفريكيا تهجم عليه، ولكنه بصرخةٍ واحدة يبدد الجحافل والقوافل، ويقفز من شجرة إلى شجرة، ويغطس في البحيرة ليظهر فوق قمة جبلٍ مهجور.

هذه أفريكيا سينما مترو، وأنا طرزانها، ومن باب التواضع ... ترزانها، ينقصني الآن مُخرج وكاميرا لنكسب ملايين الجنيهات، وأصبح نجمةً ولا إستر وليامز!

ورغم أني طفْت بعددٍ كبير من بلاد أفريكيا من قبل، إلا أن محاضرات سينما مترو لم تخرج من دماغي، أنا مثلًا مسحْت الشاطئ الشمالي الأفريكي كله، أخذْتها بسلام الله من طنجة، إلى مليلة، إلى تلمسان، إلى الجزائر، إلى تونس، إلى طرابلس، إلى الإسكندرية، وتوغلْت داخل أفريكيا إلى الخرطوم. ولكن خبراء أفريكيا الكبار أكَّدوا لي جميعًا أن أفريكيا العربية غير أفريكيا السوداء، وأن علماء الأفريكولوجيا يقسمون أفريكيا إلى قسمين، أفريكيا الشاطئ الشمالي وأفريكيا ما وراء الصحراء. وأن السينما الأمريكية لم تُسجِّل إلا نقطةً في بحر، ولم تُظهر إلا قليلًا من كثير. وقالوا: اذهب إلى هناك وسترى العجب العجاب، سترى مناظر لا يمكن تسجيلها بالكاميرا، ورجالًا كالمَرَدة لا تستطيع أن تُفرِّق بين الواحد منهم والشيطان، وسترى الطفل الرضيع يلعب وسط الغابة ليس بدمية ولكن بأسد، وإذا قُدِّر لك أن تنجو من أحراش وغابات أفريكيا فعليك واجبٌ ثقيل، هو أن تروي للأجيال القادمة القصة الحقيقية للقارة التي عاشَت أغلب الزمان في ظلام.

هذه أيها الناس هي المصادر الحقيقية والمنابع الأصلية التي نهلْت عنها كل معرفتي بأفريكيا، بالإضافة إلى تجربةٍ شخصية حدثَت لي أيام الحرب، وكان في مصر عساكر من كل المِلل، وجنودٌ من جميع الأجناس. ولكن الجنس الغالب كان جنس الأفريكان. وأشهد أنهم كانوا أشدَّ الجنود شراسةً وأشدهم ضراوةً، وأكثرهم استعدادًا للعراك والخناق، وكانوا يسرحون في حواري الجيزة في مجموعاتٍ كأنها القبائل مفلسين ليس معهم شيء، سكارى من السبرتو، يغنون غناءً كأنه البكاء، يبيعون للناس أي شيء وكل شيء مقابل زجاجة طافيا، وحتى الطافيا لم يكونوا يحصلون عليها، فقد كان الناس يغشون الطافيا، فيضعون فيها مية طرشي وأشياء أخرى لا داعي لذكرها حتى لا يتقيأ الأفريكي الذي شربها وهو الآن على بعد مئات من الأميال!

ولقد صادقْت منهم عساكر، وصاحبْت منهم أومباشية، ورأيْت عددًا منهم في رُتَب الشاويشية ... ولكن الشيء الذي لفَت نظري حقًّا هو أنه لم يكن من بين الأفريكان ضباط.

ومن زجاج الطائرة المُعلَّقة في العلالي، كما سفينة جاجارين تذكَّرْت أسماء كل العساكر الأفريكان أصحابي، الذين عرفْتهم خلال الحرب وأكلْت معهم عيش وملح، وتصافحْنا

أحيانًا بالأيدي وأحيانًا بالمطاوي، وهبْت من بعضهم نقودًا، وخطفْت من بعضهم برانيط وسجاير ... ماير، وكاتاكش، ووليم، وأدونجي، وكولوجي وساكي، وعشرات غيرهم كثيرون! وكان بحر الرمال الواسع الشاسع لا يزال يترامى تحت جناح طائرة بلا بُرُور ... لا شيء في الأفق إلا شمس الشموسة، وصهد يكتم الأنفاس، وحرٌّ قاتل يشوي الناس كما تشوي النار كيزان الذرة الخضراء على شارع الكورنيش! ولمحْت وسط الصحراء نقطةً خضراء على بعدٍ سحيق كأنها في قارة أخرى جديدة. وانطلَق صوتٌ ناعم في الطائرة يعلن وصولنا إلى باماكو عاصمة مالي ... البلد الذي شهد أغرب وأعجب تجارة في التاريخ ... تجارة الرقيق! اسم البلد نفسه كان ساحل العبيد، كان في البلد يومًا ما سوقٌ دائم ليس للطماطم والكوسة والبطيخ، ولكن للبني آدم، يجرُّونه في الحبال ويسوقونه بالكرباج ويعرضونه للبيع في المزاد! حكاياتٌ كثيرة سيأتي ذكرُها في قادم الكلام! ... المهم أننا الآن في باماكو، نحن الآن في أفريكيا السوداء، أفريكيا طرزان والقردة شيتا، أفريكيا ما وراء الصحراء.

انفتَح باب الطائرة الروسي الضخمة على أرض مطار باماكو، وكأنما انفتحَت بوابة جهنم ... أعوذ بالله من هذا الشرد اللعين الذي يقصف الأعمار قبل أوانها، ويسوِّي الطفل كهلًا كما تسوي النار المشتعلة قِطع اللحم وتدهنها بلون الفحم! الحر هنا في باماكو حرٌّ له وزن وله كثافة ... حر محترم احترامَ كابتن كورة أحرز هدفًا في البرازيل، حر له حيثية وله كيان وله وضع اجتماعي ممتاز.

حر — أعوذ بالله — تستطيع لو أردتَ أن تقبض عليه بيدك، وأن تربي منه مجموعة في عشة فوق السطوح ... ولو أنا في بلد مثل باماكو لشيدْت مصنعًا عظيمًا لتعبئة الحر في أزايز وبيعها لناس لندن وباريس؛ فهذا الحر الذي هنا حر من لون جديد، وأنا على طول ما لفِّيت وعلى طول ما نطِّيت لم أشهد حرًّا كهذا، لا حر أسوان ولا حر الحديدة ولا حر الخرطوم ولا حر قِنا التي قال فيها حفني ناصف: وقنا عذاب النار! لو أن حفني ناصف ذهب إلى باماكو لاعتذر لقِنا، ولَعاش في قنا باعتبارها قطعةً من بلاد برَّة! هذه باماكو إذن، حاضرة عربية قديمة عظيمة، وصل إليها، والتاريخ لا يزال طفلًا يرضع، أولادُ محمد رسول الله فأقاموا فيها إمارةً ونشروا فيها حضارة، وكان مِلكها العظيم منسَى موسى ملك مالي هو الذي هرش مخَّ أوروبا ولوى عنقها نحو أفريكيا، وجعل الدول الكبرى كلها تتلمظ على الضحية التي لا يسيل من عروقها دم، ولكن ذهب وتوابل ومعادن على قفا من يشيل ... فلقد كان الأوروبي وهو في قمة مجده، أيام عصر النهضة، عبيطًا بريالة، جاهلًا كغفير نقطة جنزور، أُميًّا لا يعرف الفرق بين أفريكيا وأمريكيا ... وكانوا يعتقدون

أن الفلفل الأسود والفلفل الأحمر والمستكة والحبهان تأتي من الجنة، وكان نهر النيل اسمه نهر الجنة، وكانوا يظنون أن التوابل تتساقط من شجر طويل ينمو على حرف النهر ويحملها التيار معه إلى القاهرة حيث يصطادها الناس المتسكِّعون على شاطئ الجيزة بالسنارة وبالشبكة ... ولم يكن مماليك مصر في ثراء «مماليك» أوروبا ... ولكنهم كانوا أحذق من نشَّالٍ وأنصح من العفاريت الزُّرق، وهم الذين بدعوا هذه الروايات وروَّجوها على بتوع أوروبا أولاد الهبلة لكي يضربوا نطاقًا من الغموض حول القارة والتجارة، حتى لا يأخذ الأوروبيون عساكرهم ومدافعهم ويقتحموا أفريكيا فيلهفوا خيراتها وينهبوا كنوزها، وتخرج مصر من المولد بلا حمص، وكانت وقتئذٍ تعيش على ما تحصله مصلحة الجمارك من أموال. المهم، كان ياما كان ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام، إن هذا الملك الكبير الكريم مَنسَى موسى جاء إلى القاهرة في طريقه إلى الحج، ومعه حاشية، ومعه قافلة، ومعه ذهب أصفر رنَّان، ومعه فلفل أسود يكفي لعمل حلَّة سلطة يوميًّا لمدة عشرة أجيال ... وخطَف بريق الذهب أبصار بعض التجار الأجانب ... لعلهم كانوا بقَّالين من اليونان، فعندما ذهبوا إلى الشاطئ الأوروبي فبْركوا القصة فإذا بها: ملِك أسود يرتدي زيًّا فضفاضًا، أصفر في أصفر، عليه تاج من الذهب، وفي قدميه حذاء من الذهب، وحول وسطه حزام من الذهب، وفي يده سيف من الذهب، يشرب في كأس من الذهب، ويأكل في سلطانية من الذهب، فإذا تكلم أو تنفس لا يخرج من صدره هواء وإنما عروق من الذهب الخالص! تلك كانت البداية، ويا داهية دُقِّي على الذي حصل للقارة الغلبانة أفريكيا بعد سنوات من ذُيوع هذه الرواية ... هجمَت السفُن الأوربَّاوي كالكلاب المسعورة على الشاطئ الأفريكي تهبر توابل ومعادن، ثم لم تلبث أن تركَت هذه الأشياء جانبًا وراحَت تهبر رجالًا يبيعونهم في السوق كما تُباع الكوسة والباميا الخضرا في سوق العتبة! وبلغ ما خطفوه مائة مليون رجل أفريكي لو ظلوا في أماكنهم لصَنعوا من أفريكيا جنة الله في أرضه ... ولكن حكاية الرقيق وتجارة الرقيق لم يحِن وقتُها بعدُ، وسيأتي الكلام عنها بالتفصيل في قادم الفصول.

المهم أنني نزلْت باماكو والدنيا أشد حرارةً من نار جهنم، والهواء مات منذ عشرة قرون ... والشمس ليسَت في السماء، ولكن السماء كلها شمس وكلها محرقة ... لا طير يرف في الفضاء؛ لأن أي طير يقل عقله ويطير ولو على ارتفاع قدم لهوى على الأرض مشويًّا بإذن الله ... ولو ولَد مصري حدق مفتوح العين كبابجي من محلات الشيمي يسافر إلى هناك ويفتح محل كباب وطيور مشوية لأصبح بنكيرًا في خلال عام، فلن يحتاج إلى فحم ولا

فرن ولا مروحة يهوِّي بها على النار ... يكفيه إذا طلب الزبونُ حمامًا أن يطلق الحمام في الجو ... وسيسقط الحمام بعد لحظة مشويًّا في طبق من الفخَّار، ها هي معلومات سينما مترو تحقق في باماكو، الناس هنا طوالٌ كنخل الحوامدية، أرشق من خشب الزان، أسود من منجم فحم، ولكن الملامح حلوة، العيون مشروطة، الأنف مدببة كسنِّ القلم الرصاص ... الشفايف مبطرخة، والسِّت هنا تكشف عن رأسها، والرجل يُخفي وجهه بلثام! هؤلاء هم أبناء الطوارق ... عرب صحراء أفريكيا الكبرى، أشجَع وأجدَع رجال على ظهر الأرض. الذين حاربوا استعمار أوروبا ببسالة وبهبالة ... ودخلوا على المَدافع بمطاوي واقتحموا الحصون بسكاكين وأدوات مطبخ إيديال!

واللثام ضروري وواجب في الصحراء؛ لأن الصحراء غدارة، وفيها تلال تتحرك كالثعابين السامة، ورياح تردم الناس أحياء، وأعادي ما أكثرهم في الفلاة! والمدينة نظيفة وجميلة، ولكنها ليسَت تمامًا أفريكية، أعظم وصفٍ لها أنها مدينة صحراوية، ولكن على بعدٍ بعيد منها تمبكتو، أجمل وأكمل بلدٍ في الصحراء الأفريكية، حلم السادة تجار أوروبا في العصر القديم، ولكنهم أبدًا لم يستطيعوا دخولها، وحلم السادة مخرجي هوليوود في العصر الحديث، وأفلامًا عنها أنتجوا، وروايات حولها نسجوا، وخرافاتٍ من جوِّها صنعوا، وكسبَت هوليوود ملايين الدولارات من تمبكتو ولم يستطع تُجار أوروبا الأقدمون أن يكسبوا منها فلسًا، الاستعمار الجديد هزم الاستعمار القديم وبالكاميرات دخلوا تمبكتو، وبالمدافع لم يستطيعوا دخولها! باماكو الجبارة وتمبكتو العزيزة ومالي وأفريكيا وكلمات عربية يهمس بها رجل في أذني ... وكان أول لقاء بيننا ولكنه سيمتد، وسيكون الرجل إياه رفيق رحلتي إلى داخل أفريكيا ... رجل يرتدي جلبابًا وعقالًا ومعه مَسبحة من حبَّات الزيتون، رجل عربي يقول الشِّعر ... وهو من بلادٍ الرجُل دايمًا فيها ثري، ودايمًا أمثل، ودايمًا له زبيبة، ودايمًا يرتدي الحرير الهندي، ودايمًا معه سيارة كاديلاك، ودايمًا معه فلوس في البنك ... ولكن لأن الطيور على أشكالها تقع، فقد كان العربي الوحيد الذي وقع في قُرعتي مجاهدًا يحلم بالاشتراكية ... مكافحٌ هربان من بلاده في طريقه إلى مؤتمر آسيا وأفريكيا، غلبان أغلب من عبدٍ حبشي، مفلس ولا مسجون خارج من تأبيدة، مُصلح اجتماعي ولا أبو ذر الغفاري، ثائر تكاد أعماقه تحترق ولا الحريقة المشعللة في جو باماكو! والعربية هنا مفهومة ومستعمَلة، وواحد من أبناء محمد يركع ويسجد في الطريق ووجهه نحو القبلة، ولكن الرجل العربي خلع ملابسه وارتدى الملابس الأوروبية منعًا للإحراج، وطول الليل والرجل العربي يثرثر على ودنه، ومع أننا في الليل وفي الهواء الطلق إلا أننا

كنا وكأننا لم نكن في الخلاء فلم يكن ثمة هواء على الإطلاق! وعسكري أسود كأنه قطعة من الليل يتمشَّى افرنجي على بعد خطوات منا! والأوتوبيسات تجري على الطريق أمامنا كما أوتوبيسات الخرطوم ... أوتوبيسات من باب الدلع ... عربيات كانت صناديق شاي في الماضي البعيد، ثم ظهر لها موتور كما تظهر الدمامل في جسم الإنسان ... والعربية من دول تقوم من محطة القيام وبعد كيلومتر واحد تشحط وتنقطع أنفاسها وتموت ويتولى الركاب زقَّها حتى محطة الوصول ... وهي وسائل المواصلات باعتبار أن الإنسان هو الذي يقوم بتوصيلها حتى لا تتوه في الطريق ... كارثة كبرى أنه بعد عشرات ومئات السنين من الاستعمار لا يجد الأفريكي الطيِّب شيئًا يركبه ... والمدينة كلها نائمة وميتة بعد التاسعة، ولأن الدنيا حر فقد كان السيد الخواجا يجد حياته في منزله في حدائق كما حدائق الجنة، وتكييف هواء وحمامات سباحة، ولأن الاختلاط بالأفريكان عيب، فقد كان الأوروبي يغلق بابه ويبتعد! وكان على الأفريكي أن يجد حياته في المدينة تحت أي ظروف، وكانت ظروف معيشته دائمًا منحطَّة، ولكنها عال ما دامَت تحفظ عليه حياته ليعاود العمل في مزارع ومناجم السادة البيض! وفي الفجر انتهى الحر في أمان الله ... وحمدْت خفيَّ الألطاف الذي نجَّانا مما نخاف ... غير أنني اكتشفْت بعد فترة أن الذي أخاف كان لا يزال موجودًا بخير ... الحر لم ينته، ولكن أنا الذي انتهيْت ... ساح عقلي فأصبح كالشيكولاتة ... ووقعْت ليس في غيبوبة، ولكن في ديخوخة ... من الدوخة والعياذ بالله! وقمْت أتوكأ على أحمد صديقي الذي كان يظن أنه هو الذي يتوكأ عليَّ! وعلى طول الطريق من المدينة إلى المطار يلوِّح لنا ناس باماكو في ودٍّ بالغ ... ولاح شبح ابتسامة على شفتي ... تذكرْت الموري أبدو عسكري مالي الطيب الذي صاحبْناه وأحببْناه ذات يوم من أيام الحرب الثانية ... ورغم مرور أكثر من عشرين عامًا على صداقتنا بالموري أبدو ... إلا أن وجهه الطيب السمح لم أنسَه ... ولقد صادقَنا نحن شلة الجيزة لأنه كان يشكو الوحدة، وصادقْناه لأننا كنا نشكو الإفلاس ... وبعد ستة أيام من الصداقة المتينة والكلام في مستقبل أفريكيا قررْنا أن نهبره. وذات مساءٍ طلَب منا خمرًا فطلب زعيم الشلة منه خمسين قرشًا ... وكان في نيتنا والله أعلم أن نشتري له زجاجة خمر مغشوشة بعشرة قروش ونلهف أربعين قرشًا ... ولكن الرجل الطيب ابن الناس الموري أبدو عسكري مالي الطيب توقَّف في ميدان الجيزة فجأةً، وقال: اذهبوا أنتم بسلام، اشتروا الخمر المعتَّقة وسأنتظر أنا هنا ... وكانت مفاجأة غريبة لم نتعود مثلها في صفقاتنا الماضية ... كان العسكري الأفريكي يعكم الواحد منا في قفاه فلا يتركه حتى يقبض على زجاجة الخمرة المغشوشة ... ولقد حدث مرةً أن عسكري أفريكي

من دار السلام عكم العبد لله من قفاه حتى بعد أن استلم الخمرة ... وأصر على ألا يتركنا إلا بعد أن يأخذ نقوده، المهم أننا تركْنا الموري أبدو واقفًا في ميدان الجيزة وانصرفْنا ... وبالطبع لسْت في حاجة إلى أن أقول لكم إن أحدًا منا لم يعُد! ولم يكن هذا هو الغريب في قصَّتنا مع عسكري مالي الطيب الموري أبدو، ولكن الذي سأحكيه الآن هو الشيء الغريب! بعد أيامٍ التقى الموري أبدو بواحدٍ من الشلة يتمشى افرنجي على شارع الترماي ... ووقع قلبُ أخينا في بطنه ونشف دمه وطقطق شَعر رأسه من شِدة الخوف، ولكن الموري أبدو سأله في ودٍّ شديد عن الأصدقاء، ولماذا لم يعودوا تلك الليلة! واخترع صاحبنا قصة تُرشِّحه للتأليف في مسرح ساعة لقلبك، قال: إن أولياء أمورنا قبضوا علينا في نفس اللحظة التي كنا نشتري فيها الخمرة، وأنهم ساقونا أمامهم إلى البيوت مصفَّدين في الأغلال ولا رقيق اشتراهم خواجا من ساحل أفريكيا ... قصة مضحكة حقًّا ولكن الموري أبدو استمع إليها ولم يضحك ... ولو أنني قصصْت ذات القصة على حفيدي محمود الآن فلربما هزر معي هزارًا شديد البواخة عديم الاحترام! ولكن الموري أبدو أبدى شديد أسفه لما حدث لنا بسبب أنه أراد أن يشرب كأسًا في ليلة شتاء! وتأسَّف صديقنا أيضًا لأننا لم نرُدَّ له الخمسين قرشًا في حينه وسحَبه من إيده إلى قهوةٍ كُنَّا نجلس عليها ولها أكثر من باب. ولعل هذه الميزة — أكثر من باب — هي التي رشَّحَتها لنا دون قهاوي الناس للجلوس ... فلقد كنا نعيش في ذعرٍ دائم من عساكر الأفريكان ... وكأننا أرانب صحراوية عليها أن تجد بابًا للفرار إذا حانَت ساعة العراك والخناق! ووقف العسكري الموري أبدو على الرصيف، ودخل صاحبنا إلينا، فلما أبصرْنا الموري أبدو واقفًا يتطلع إلينا تجمَّد الدم في عروقنا، فقط خطر لنا أنه جاء للانتقام! ولكن عندما حكى لنا الصديق القصة خطرَت لنا فكرة أخرى نهبر بها مبلغًا يكفينا شر التهويب ليلَتنا على كامب الأفريكان! وبعد لحظةٍ ذهب الصديق إلى الموري أبدو وطلب منه خمسين قرشًا أخرى لأننا لا نملك إلا جنيهًا صحيحًا ولا توجَد فكة في أي مكان، وهكذا أخرج الموري أبدو الخمسين قرشًا ببساطة، وهكذا أيضًا لهفها صديقنا ببساطة ودخل القهوة، وهكذا أيضًا خرجنا جميعًا من الباب الخلفي ببساطة، وتركْنا الموري أبدو واقفًا مكانه على الرصيف ينتظر ... ولعلَّه لا يزال واقفًا مكانه حتى الآن!

نسِيت أن أقول لكم أن الموري أبدو معناها المريد عبده! حكايةٌ قديمة تذكرتُها وأنا في طريقي من باماكو المدينة إلى باماكو المطار ... والناس الطيبون يلوحون لنا بأيديهم لا لشيء إلا لأننا غرباء ومن بلدٍ بعيد! زيارةٌ خاطفة لمالي ولكن عميقة! والرجل الذي لا أنساه شيخ في السبعين شديد البأس ولا سيد نصير، نظرُه على قده ولا الحكَم صبحي نصير،

نحيف كما عامود النور، سريع الخطوة ولا إكسبريس الصعيد، كان قادمًا إلى باماكو من رحلةٍ طويلة في الصحراء ومهنته دليل قوافل، يتنقل بين ليبيا والجزائر والمغرب وموريتانيا، وإذا كان هو عنتر فالصحراء عبلته، وهو أحيانًا يقضي سنوات طويلة لا تقع عيناه إلا على اللون الأصفر ... والرمل وسادَتُه والزلط ... نهر المياه الذي يصب منه في أيام القيظ الأغبر! عاصَر الصحراء في فترة غليان ... وشاهَد فلول جيش الأمير عبد الكريم الخطَّابي وهي تهيم على وجهها في الصحراء، وعساكر إسبانيا الذين طاردوهم مطروحين على الرمال الساخنة كالفسيخ البوري! وهو دائمًا أثناء غزواته السلمية يرى في الصحراء رحلات مريبة، ست خوجاية حلوة ورجالة بيض، بيض كالثلج الذي ينبتُ على قمم جبل أشانتي يضربون في الصحراء الوسيعة ... وهو أحيانًا يرى بعضهم في رحلة العودة، وإن شئتَ الدقَّة يرى آثار بعضهم مجرَّد عظامٍ نخِرة وحولها زجاجات بيرة فارغة وعلب طعامٍ محفوظة وشنط فيها ملابس قذرة!

وسيدة أخرى من مالي كانت تعيش منذ عشرة أعوام في النيجر ... التقَت على الحدود هناك بمكافحٍ جزائري في جيش الثورة، جريح كان يعاني من رصاصة اخترقَت كتفه. وهي تتكلم فرنساوي والولد أيضًا لبلب! وتفاهما وتحابَّا وطارا معًا إلى تطوان في المغرب وعقدا قرانهما في قصرٍ فخيمٍ عظيم على تلال تطوان الحلوة. وكان القصر يملكه رجل جزائري ثري يعيش حياةً مرفهة وله سمعة كالطبل في كل المغرب!

ولكنها اكتشفَت بعد يوم واحد أن القَصر وصاحبَه خدْعة، وأنه مَخبأ ومستشفى لجيش الثورة، وبعد شهر ودَّعَت الزوج على حدود وجدة. وذهب إلى جبال تلمسان ولكنه لم يعد أبدًا.

وحتى بعد الاستقلال دخلَت الجزائر وبحثَت كالمجنونة في كل شبر ولكنها لم تجد شيئًا. فعادَت إلى بلادها ومعها صورة للشهيد الذي مات في معركة بزوغ أفريكيا. البنت أشهد أنها في لون الشاي المغلي، طعمه كما قطعة الخروب الهندي، ملامحها أوروبية وعيناها في خضار برسيم بلدنا.

سألتْنا في صوتٍ ولا صوت الكمنجة: من مصر؟

– نعم.

– زرتُها مائة مرة.

– أعجبتْكِ؟

– لم أرها ولا مرة.

قطعة الخروب الهندي ... ناوسا واسمها بالعربي ناعسة، تعمل مضيفةً في شركة طيران أفريكية ... وهي زارَت مطار مصر مائة مرة، ولكنها لم ترَ مصر ولا مرة، رأتْها من الجوِّ بيوت كعلب الكبريت!

وشوارع كإبر الخياطة، وحقول كالسجاجيد العجمي!

الجو هو الآخر صحراء ليس فيه معالم وليس فيه مناظر، وأي صلة وثيقة بدليل القوافل ومضيفة الطيران؟

والطيارة الروسي الضخمة لا تزال رابضة على أرض مطار باماكو في انتظارنا، كأنها قدرنا يتبعنا. وكيف نهرب من أقدارنا وهي حكَم علينا؟

والطيارة الروسي تنطلق بنا في الجو كوحشٍ مجنون هارب من قفصه. وأنا نائم ألتهم أرزًا مع الملائكة، فقد أصبحْت قريبًا منهم. المسافة بين الطائرة وبين السماء فركة كعب، وفي الحالتين معًا سواء، حلَّقَت في العلالي أم هَوَت بنا على جدور أعناقنا! والصديق العربي مصرٌّ إصرارًا عنيدًا على أن يُسمعني شِعرًا في الثورة! وإلى غانا ... إلى قلب أفريكيا حيث نقضي شهرًا طويلًا جميلًا! ولسوف نحكي قصصًا وحواديت وأساطير وتواريخ ما أجملها.

عبيد ليفربول ... أكثر سوادًا

لا يمكن مهما قلْت ومهما رغيت أن أصف لكم أفريكيا ... ولا شيء يمكن أن يُطلعك على أفريكيا أبدًا، لا الكتابة ولا الأفلام ولا التصاوير، وإنما شيء واحد فقط هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك، هو أن تأخذ ذيلك في أسنانك وتجري على أفريكيا!

فهو مَنظر لو فاتك — يا عبد الله — رؤيته فأنت لم يُكتَب لك المرور على دنيا الناس! فلا أوروبا بجمالها ولا آسيا بأسرارها تستطيع أن تقف إلى جانب أفريكيا في معرض القارات!

ستجد هناك جمالًا فشر جمال أوروبا، وألغازًا تصبح إلى جانبها أسرار آسيا مجرد فوازير ونكت بايخة! وناس أفريكيا ما أحلاهم وما أطيبهم وما أبسط وأجمل حياتهم!

ولكَم تمنيْت أن أفرش حصيرة أفريكاني حلوة، وما أحلى الحصير الأفريكي وما أغناه، تمنيْت أن أفرش حصيرة أفريكي على الساحل وأتسلطح على ظهري لا أهش ولا أنش، إذا عطشْت أمد إيدي وأكسر جوزة هند في حجم البطيخة المجيدي الحلوة، أشرب وأتكرَّع وأتبغدد، وإذا جعْت فلا أمد إيدي ولا حاجة، أنتظر فقط حتى يسقط من على الشجرة قفص منجة ألفونس في حلاوة جاتوه أخونا جروبي، ألتهم القفص وأتبهنس! فإذا أردتُ أن أغسل يدي فالسماء كفيلة بكل شيء. ستمطر حتمًا إذا كنا في الصيف، وإذا كنا في الشتاء فلسوف تمطر أيضًا.

هذا إذن هو ساحل غانا الذي لا أستطيع وصْفه. الساحل الساحر الذي اكتشَفه يومًا ما ولد برتغالي صايع كان يتمخطر في عرض البحر بمركب جربانة، ولكن عليها مدافع جبارة، وفوق المَدافع علَم في حجم ملاية السرير مرسوم عليه صليبٌ مسنون ومدبب في كل ناحية من نواحيه الأربعة، كأن كل حافة فيه حربة!

ولكن قبل مجيء هذا الولد البرتغالي الصايع، مرَّت من قبلُ مراكب أخرى جبارة ولكن بعيدًا عن الساحل، تخترق بحر الظلمات في طريقها إلى عالمٍ مجهول ومسعور لم يصل إليه كائن حي من قبل. كانت سفُن البرتغال تُجرب حظها، تحاول الوصول إلى أرض الكنوز في الهند. كانت البرتغال وقتئذٍ بلدًا فتيَّة مفتريَّة، لديها مراكب كما الصواريخ الآن في روسيا. وعلى المراكب مَدافع تُطلق النار فتُبيد الغلابا المنكسرين الذين يهجمون على الأسُود بسِكينة بصل ومطوة مصدية!

وكان لديها بحَّارة ولا الشياطين الحمر، عليهم شقاوة ولا العفاريت الزُّرق، طَموحِين اغتنوا وأغنوا بلادهم، مغامرين مات نصفهم في رحلات الكشف، ومات النصف الآخر في رحلات اللهْف والخطْف!

وعندما جاء الولد البرتغالي الصايع بمركبته كان شاطئ غانا هادئًا وديعًا كما قطة ... أشجار جوز الهند ملفوفة كما بنات حلوين في ملايات حرير سودة. وأشجار الأناناس تتمخطر مع الريح كأنها أعلام ملك الغابة نشرها على الساحل في يوم عيد ... وولدٌ أفريكي طيب يتسكع عند الشاطئ يصطاد سمكةً بحرية، ويقطف جوزة هند بخشبة زانٍ أطول من قلع المركب. وربما كان هناك قرد يصرخ وكلب يعوي ونسر جبار يُحلِّق في السماء السابعة بحثًا عن ميِّت فخيم يحطُّ عليه ويأكله!

المهم أن الولد البرتغالي الصايع دخل شاطئ أكرا وطوى قلوعه وألقى مراسيه وطقطق مدفعين من عنده تحيةً للشاطئ المجهول. ولكن المدفع — يا للهول على رأي يوسف وهبي — جعل النسر يُحلِّق في العلالي والقرد يشطح نحو الغابة، والولد الأفريكي الطيِّب يُسدِّد حربته التعبانة نحو المركب وينطلق يجري في داخل أكرا، وقد تأكَّد لديه أن القيامة قامَت، وأن المَدافع هي جرس إنذار لتستعد الناس وتتهيأ! ولم تكن القيامة قد قامَت ولا أي حاجة، وربما انتهى الأمر بالولد الأفريكي الطيِّب إلى الجنون أو الموت ... لا يهم، فالمهم عندنا هو الولد البرتغالي الصايع الذي رسا على ساحل أكرا ذات صباحٍ جميل منذ خمسة قرون، عاش الولد على الشاطئ أيامًا، ثم عاد، ولكنه حمل معه في رحلة العودة ثمارًا وفواكه وحفنة تراب من أكرا وأحلامًا واسعة بالسيطرة على هذه الأرض. وبعد شهورٍ عاد من جديد في عمارةٍ بحرية شديدة الهول، ومعه مرسوم من ملك البرتغال بأن يكون كل ساحل غانا تابعًا لأملاكه. ولم لا وقد صار ملك البرتغال ملك زمانه وأوانه ووحيد عصره! الأسطول المصري العظيم تحطَّم مع أسطول البندقية في معركةٍ بحرية ضد أسطول البرتغال. وعندما استقر حطام آخِر سفينةٍ مصرية في قاع البحر كان ملك البرتغال قد أصبح هو الحاكم بأمره،

وأصبحَت كل الكرة الأرضية مِلك يدَيه لولا دولة أخرى تجاوره على الخريطة وتزاحمه في البحر هي إسبانيا، وهي قصة خلاف مؤسفة مُكسِفة — من الكسوف — جعلَت البابا شخصيًّا يتدخل في الأمر، فيحكم بأن نصف الدنيا جنوب خط عرض كذا تابع لملك البرتغال، ونصفها الآخر شمال الخط إياه تابع لملك إسبانيا، ومن ذلك اليوم الأغبَر بدأَت أغرب وأعجب عملية نهبٍ عرفها التاريخ. لم يلبَث ساحل غانا أن سقط في يد شركة الهند الشرقية، ولكن ذلك اليوم لم يكن قد حان بعد عندما وفدَت عمارة الولد البرتغالي الصايع على شاطئ أكرا هدفها التجارة وهداية الناس السود إلى طريق الرب! ولذلك جاءت العمارة البحرية وعليها مَدافع، ومع المدافع حفنة من رجال الكهنوت! واستقرَّت البعثة عند الشاطئ في صمتٍ وفي هدوء. لا تتكلمُ مع أحد ولا يتكلم معها أي أحد. بدأ عهد التجارة الصامتة. البيع والشراء يتم على طريقة شارلي شابلن في أفلامه القديمة! العيال البرتغال يضعون خرزًا أحمر وأصفر ومطاوي مسنونة وسيوف تلمع. ويأتي الأفريكي فيلهف ما تركه العيال البرتغال، ويترك مكانه ذهبًا وتوابل وأشياء أخرى يسيل لها اللعاب.

وقضَت البعثة شهورًا أقامَت خلالها على الشاطئ قلعةً منيعةً لتصبح مركزًا للتجارة في قادم الأعوام. ولكن حدث في اليوم الأخير حادث هايف سيكون له تأثيرٌ عميق على القارة الغلبانة، وسيقلب الحياة فيها وفي العالم لعدة قرون. جاء ولدٌ أسود أفريكي غلباوي إلى الساحل، وتقدَّم نحو العيال البرتغال يتفرج عليهم ويضحك من الأعماق. وكان الآباء الطيبون يُصلُّون في خشوعٍ عميق وتراتيلهم تتصاعَد إلى أبينا الذي في السماوات!

وظَنَّهم الولد الأفريكي يرقصون ويمرحون، فوقف على مرمى حجرٍ منهم يُغني ويكركع. وخطر لولدٍ برتغالي خاطرٌ شرير، فتقدَّم من الولد الأفريكي وقدَّم له كأسًا من منقوع البراطيش، وشربه الولد الأفريكي وانبسط جدًّا، كانت أول مرةٍ تذوق فيها خمرًا وستكون الأخيرة! راح يرقص ويتنطَّط كأنه قردٌ جُن في الغابة، ثم سقط على الأرض بعد ذلك؛ ليحمله البرتغال معهم على السفينة إلى لشبونة. حادث هايف كما قلت، سيُحاكم الولد البرتغالي البحار بسببه؛ فالملك يريد ذهبًا وتوابل، ولكنه ليس في حاجة إلى مثل هذا العبث الشيطاني الذي أقدم عليه هذا الولد البحَّار! غير أن رجلًا برتغاليًّا نابُه أزْرَق، عجوز كما سيدنا نوح، شرير ولا شيطان، مهدود الحيل ولا شيال في محطة الجيزة، شاهَد الولد الأفريكي في الميناء، وكانت نظرة مهببة جرَّت المصائب والبلاوي على الجنس الأفريكي كله. اندهش الرجل غاية الاندهاش لهذا التكوين الجسماني الفذ، الولد الأفريكي منفوخ العضلات كعمِّنا كلاي، عريض الصدر كفتوة باب الوزير. شديد البأس كضَبْع. وتحسَّس

الرجل الخبير عضلاته وعظامه، وخطف ذيله في أسنانه ورمح إلى قصر ملك البرتغال. فلو أن المراكب عادَت من أفريكيا بأعدادٍ وفيرة من هذا الصنف الممتاز من الرجال لغلَّت المزارع ضِعْف ما تغلُّه الآن. ولسارَت السفُن ضِعف سرعتها التي تسيرها الآن، ولَتغيرَت الحياة في أوروبا وفي المستعمَرات، فقد كانت أمريكا قد اكتُشِفَت منذ لحظات، وأمريكا الجنوبية تم اكتشافها من زمان. وظلَّت على حالها براري شاسعة يسكنها البعوض والهوام. والبرتغالي الذي عاد وذهب إلى هناك مات بعد أسبوعٍ واحد من شدة النكد والإجهاد! ماذا لو ذهب أهل أفريقيا الأقوياء الأصحَّاء لتعمير هذه البلاد؟! وفعلًا، أخذَت المراكب تجري بأقصى سرعة نحو الساحل الغربي لأفريكيا، لا ترغب الآن في ذهب ولا فلفل أسود ولا حبهان. هذه تجارةٌ قديمة لم يعد فيها خير. التجارة الجديدة أكسَب وأسهَل. ومن هنا قامَت تجارة الرجال. وكانت أكرا أوَّلَ مركز للتجارة الجديدة، ولم تلبث مراكز كثيرة أن قامَت على طول الساحل. وبدأَت عملية صيد الرجال بالشبكة وأحيانًا بالرصاص. مئات الألوف يجرجروهم كل يوم في حبال وسلاسل. والكرابيج تلسع وجوههم وتلسع ظهورهم، والذي يسقط منهم يموت مكانه، التجارة لا تعرف الرحمة. وهؤلاء ليسوا ناسًا ولكنهم مجرَّد آلاتٍ بشرية! ومات مئات الألوف ولكن التجارة لم تتوقف. حتى إن الطريق من خماسي داخل غانا إلى أكرا كانت مَعالِمه من عظام الإنسان! ويُحشَر ناس أفريكيا عند الساحل في عنابر كعنابر الخيل المُعدَّة للتصدير. ويأتي في الصباح أبٌ طيِّبٌ يحمل كتاب الله وصليبه، فيرشُّ الجميع بالماء المقدَّس. وما دام العدد وفيرًا فمن المضحك طبعًا أن يستخدم الأب الطيب زجاجةً أو قنينة. وبما أن الحكاية كلها تجارة وتهليب، فقد كان الأب الطيب يُعمِّد إخوانه الجُدد في الدين بماءٍ يرشه عليهم من براميل أُعِدَّت خصوصًا على ظهر السفينة. وبعد دقائق تنتهي عملية الرش المقدَّس، ويصبح الأفريكان الغلابا مسيحيين طيبين! مسموح لهم بدخول ملكوت الله!

تصوَّرُوا، الناس البني آدميين أولاد الأصول تحولوا إلى سلعة، يضربونه على صدره وعلى ظهره ويزغزغونه ليكشفوا عن أسنانه، ويأخذون عيِّنةً من شَعر رأسه، ثم يعرضونه في السوق للبيع. ولأن العبيد كانوا بترول تلك الأيام فقد دخل السوقَ أكثر من تاجر ثم أكثر من دولة. وحتى لا تتوه البضاعة في زحمة الشغل، كان كل تاجر يختم بضاعته بختمه. تحوَّل الناس الأفريكان — يا حول الله — إلى أزايز ويسكي. عبيد هيج، وعبيد ديوارس، وعبيد جوني ووكر. أصبحوا مثل السجاير — يا ولداه — كيلوباترة وهوليوود وبلمونت. وأصبحَت هناك أصنافٌ ممتازة تختفي فورًا من السوق، ويبحث عنها الناس في الموانئ

والسواحل بعُود كبريت! وأصبح للبني آدم الطيب ابن الأصول بورصةٌ وتسعيرة، وعندما أصبح للسوق تسعيرةٌ دخل الغش في السوق. تجار خواجات فهلوية ليس عندهم دين ولا ذمة راحوا يغشون البضاعة، معذورين؛ لأن شركات الاحتكار الكبرى لم تدَع للتُّجار الصيَّع أمثالي مجالًا لأكل العيش! كانت أعظم ماركة هي ليفربول، شركة إنجليزية عظيمة تملك ألف سفينة تمرح بين الشاطئ الأفريكي والشاطئ الأوروبي لا تون ولا تهدأ. وكانت تبيع أعظم الأصناف. وكان خِتم ليفربول على كتف العبيد جواز مرور ليختفي الصنف فورًا ليعاود بيعه في السوق السوداء، وبما أن حكومات أوروبا في ذلك الحين كانت عادلةً وكانت ضدَّ التجار الجشعين، فقد كان تجار السوق السوداء يضطرون إلى إخفاء البضاعة في سراديب تحت الأرض، وفي كهوف في الجبال، ثم لجئوا بعد ذلك للمقابر يدفنون البضاعة وهي حية، ثم يخرجونها حتَّة بعد حتَّة وكانت «حتت» كثيرة تموت أثناء عملية التهريب والبيع، إلا أن الذنب كان يقع على عاتق الحكومات المتشددة الحنبلية التي تريد البيع بالقسط والميزان!

أما التجار الصيع أمثالي فقد نزلوا شاطئ أفريكيا يلقطون رزقهم في الخفاء. لم يكن معهم مراكب ولكن قوارب صيد قذرة ومكشوفة ورديئة، غاية ونهاية في القذارة وسوء الحال! ولما كانت وسائلهم محدودةً فقد كانوا يخطفون الأطفال والمرضى والشيوخ المسنين. وبالقوارب ينقلونهم إلى الشاطئ الآخر، ثم يحقنون الجميع حقنًا يستمر مفعولها أسبوعًا، تجعل من الصبي المريض هصورًا كالأسد، وجهه مزنجر من الصحة الحديد، عيناه مفنجلتان كما الصقر في الفضا ... بضاعة مغشوشة.

كان الشاري الخشني يدفع فلوسه ويجرُّ العبد خلفه، وبعد يوم واحد يعود إلى الساحل مرة أخرى ومعه جثة العبد إياه يطلب فلوسه! ولما كانت الحكومة عادلةً فقد كانت تتدخَّل لمصلحة التاجر، ما دام البيع والشراء قد تم بالرضا والمهاودة وكل شيء في العملية سار بما يرضي الله!

ولذلك ظهرَت إعلاناتٌ ضخمة على الشواطئ في أوروبا وفيما وراء البحار في أمريكا تُعلن عن البضاعة الجيدة وتحذر من البضاعة المغشوشة. ولا بد أن هذه الإعلانات كانت بالفسفور وكانت على ألوان. وعبيد لويد هم الأصل. وعبيد ليفربول أكثر سوادًا. وخذ عبيد بومبال واشكر الرب المتعال!

وكما ينضب بئر البترول فجأةً فلا يعود يبز قطرة جاز، كانت القرى الأفريكية تنضب، والمدن الأفريكية تخلو من أهلها، ثم خلَت مناطق شاسعة تمامًا ولم يعد فيها شيء. ساحل

غانا وغينيا وساحل العاج وليبريا، كنسَها التجار من أهلها، حتى الكلاب نفسها هجرَتها؛ لأن أحدًا غيرها لم يعد هناك! وانسعر أهل أوروبا فراحوا يتوغلون في الداخل كلما خلَت منطقةٌ من السكان. وكان ملك البرتغال شيخ مشايخ تجار الرقيق، يصدر تعليماته إلى تُجَّاره الذاهبين إلى هناك. برغم أن الهدف الرئيسي هو خدمة الله والكنيسة، فلا بد أن تعود السفن محمَّلة بالعبيد والعاج.

ولكن هذا الهدف الرئيسي الذي هو خدمة الله والكنيسة أمرٌ يدعو إلى الضحك بلا شك، إذا علمتَ أن عدد المسيحيين الذين اهتدوا إلى طريق الرب في غانا خلال قرن كامل من الزمان بلغوا ألف أفريكي! أما المبشرون أنفسهم ورجال الكنيسة فقد خلعوا رداء الرب، وتركوا كتابه في نفس اللحظة التي وضعوا فيها أقدامهم على الساحل الأفريكي، واشتغلوا جميعًا في استغلال الأرض والبحث عن الذهب، والبعض الآخر كان أكثر صراحةً فاشتغل في تجارة العبيد! ويا كبدي المقروح على أفريكيا الغلبانة، خطفوا منها عددًا لا أحد على ظهر الأرض يعرفه، ولكن عدد الذين وصلوا إلى الشاطئ الآخر وبِيعُوا فعلًا وسُجِّلوا في الدفاتر والحسابات بلغَ مائة مليون عبد، وفي دنيا التجارة «الشحنة لا تصِل دائمًا سليمةً»، وما دامت هذه الشحنة المهببة ناسًا أولاد بني آدم فقد كانت الخسارة فيهم أثناء الطريق أفدح! وما دام مائة مليون وصلوا فلا بد مائة مليون آخرون ماتوا في المحيطات أثناء الرحلة المشئومة! وهكذا تمَّت أغرب وأعجب تجارةٍ في تاريخ البشرية، وذهب أولاد أفريكيا العظام لينشروا الحياة في أوروبا وأمريكا وجزر الهند الغربية، واغتنى من وراء التجارة شخصيات لامعة ومحترمة ومشهورة، الملكة إليزابيث كانت أعظم التجار وأغناهم، وكان ملك البرتغال ينافسها وكذلك ملك إسبانيا، وكل حضرات اللوردات والبارونات والماركيزات في دول أوروبا كلها بلا استثناءٍ هم أحفاد تجار البني آدم! فقد بلغ هؤلاء التجار وضعًا اجتماعيًّا ممتازًا بفضل الذهب الذي سال بين أيديهم، جعل الألقاب الرفيعة وقفًا عليهم مدى خمسة قرون من الزمان!

قصص مضحكة مبكية ستجد بعض آثارها منقوشًا على جدران أول قلعةٍ أقيمَت للتجارة المشئومة على شاطئ أكرا! وفي قلعة وينيبا، ثاني مركزٍ للرقيق في أفريكيا، ستجد دماء البضاعة متناثرًا على الحيطان وعلى الأرض، وإلى يومنا هذا لا يجرؤ أفريكي من وينيبا على الاقتراب من القلعة.

الأساطير تقول: إن الناس تسمع صراخًا ينبعث من داخلها في الليل، وأن الأشباح تحوم حولها في الظلام ترغب في الانتقام، ويا ويل الرجل الأبيض إذا هوَّب نحوها عندما تغطس الشمس في المحيط الأطلسي!

تلك هي القصة الدامية من طقطق لسلامو عليكو، ومع ذلك قلَبوها أولاد الدايخة الخواجات، فأصبح العرب في كتُب التاريخ هم تجار الرقيق، هم الذين بدعوها وروَّجوها، والأوروبَّاوي المسكين دخل السوق مشتريًا ليس إلا! والأوروبَّاوي يقول هذا القول وله العذر، ولكن ما عذر السادة العرب حين يقولون أيضًا مثل هذا الكلام، وفي كتُبٍ مَفروضٌ أنها علمية وجامعية ... ويا مهلبية يا! تحت يدي كتُب عربية تدِين العرب وحدَهم دون غيرهم بتجارة الرقيق، حتى الدولة العربية العظيمة التي قامَت في الكونغو، وفي منطقة كاساي وكاتنجا، دولة حميد الرجيبي أو تيبو، آخِر قلعةٍ وطنية سقطَت في أفريكيا بعد أن ظلَّت تكافح وتقاوم عشرات السنين. وبسقوطها انفتح باب الكونغو أمام استعمار البلجيك. ومع ذلك فليس حميد الرجيبي في نظر العلماء العرب إلا تاجر رقيقٍ اختلف مع البلجيك. فضربوه وطردوه من البلاد لينشروا العدالة والحضارة في حوض الكونغو العظيم!

ما علينا ... أنا فقط عرضْت الصورة البشعة؛ لتكون على عِلم بالذي حدث في أفريكيا. فالذي حدث لم يكن خيرًا طبعًا، ولكنه أيضًا لم يكن شرًّا كله، فها هي أفريكيا بعد طول انتظار، وأنا أتسنكح على شاطئها بجلباب حرير سكروتة وشبشب زنوبة ... أكاد أتخبل في عقلي من شدة اللذة، وأكاد أشق هدومي من شدة الانشكاح! الأرض حمراء كما البطيخ الشليان ... والزرع أخضر خضار البلوفر المطبوع في مكن بلاده، والعشب هنا ينمو بأمر ربي، والشجر كما مهندس عبقري جمعه وبعثره في غاية الجمال، وماء المحيط أزرق كما عيون الحليوة، والكلاب كما الذئاب، والحمار مخطَّط كما البيجاما الكستور الغالية! والفراخ بعضها بلدي وبعضها يتمخطر كالملكة في ليلة افتتاح! كأنها نعامةٌ صغيرة، كأنها ست غندورة تتمشى افرنجي في شارع الشانزلزيه! والطيور التي في الجوِّ ليست غربانًا أعوذ بالله، الطيور هنا نُسور، والنسر فارد جناحه كما لُورد عايق يتحنجل في شوارع لندن. وصقورٌ الله عليها، والصقر يعلى ويعلى وله همَّات، يلف في الكون ولا يلقى وليف عدله، يموت من الجوع ولا ينزل على رمَّات! والعصافير هنا كناريا، والغربان بغبغانات. وشجر الشوارع مانجة وجوز هند وأناناس! والسما هنا صافية كقلب المؤمن، والطبيعة فشر سويسرا وفشر هولندا! وأنا ماشي على الشاطئ أزحف بالشبشب زنوبة ... جلبابي السكروتة يهفهف رغم أنه لا يُوجَد هواء، كأنني تاجر رقيق مفلس جربان غشاش يخشى التوغُّل في الداخل، والصديق العربي من خلفي يضع قصيدةً في وصف الطبيعة! ورجلٌ آخر انضم إلى قافلتي، أبيض كما الأوروبَّاوي في زمانه، ملظلظ ولا واحد خواجا

جاء يتكسَّب في أفريكيا، عادل شريف ... صحفي، وبَطَل تنس، ورحَّالة بحُكم عَمله في المؤتمر الآسيوي الأفريكي، قافلةٌ كفرانة غلبانة ستواصل رحلتها رغم كل شيء على شاطئ غانا.

والجدْعَنة انهزمَت يا ولداه

ها هي أفريكيا بعد طول انتظار، وها هو الشعب الأفريكي بعد غيبة أطول! ستجد هنا قشرةً على وجه الشعب تركها الاستعمار، ولكنها قشرةٌ رقيقة أرق من ورق السجاير، ولكن لا تُحاول أن تنزعها، الأفريكي نفسه سينزعها لك بعد قليل، وعندئذٍ ستعرف الأفريكي على حقيقته.

طيب أطيب من الطشطوشي، فنان ولا جمال كامل، شهم ولا ابن بلد مصري أصيل يرمي جتته في النار من أجلك، ويخدمك لا يرجو ثمنًا، ويبكي إذا شاهد ميتًا في الطريق ويرقص إذا ترامى إلى سمعه نغم يحمله الريح من بعيد.

وصحيح أنه يتكلم الإنكليزية ولكن بطريقته ويرتدي الملابس الإفرنجية ولكن على هواه ... البنطلون شورت، والقميص مدلدل فوق البنطلون، وبرنيطة خوص آخر مزاج، وبايب يتدلى من الفم، ولكن هذا الزِّي فقط لشُغل المكاتب، وللمهابرة طول النهار، فإذا جاء الليل، ويا حلاوة الليل في أفريكيا، خلع الأفريكي زِيَّه المزيَّف وارتدى زِيَّه التمام، بنطلون شورت تمام، وصندل تمام، وحرام مزركش ثمين ولا حرام الشيخ مصطفى إسماعيل، حرام يخفي كتفًا واحدًا، والكتف الثاني مكشوفٌ يشبه تمام التمام زي المرحوم غاندي، مع فارق واحد ليس في الحرام ولكن في الجسم، جسم الأفريكي كما أسد مربرب في غابةٍ عامرة بالغزلان، كتف الواحد من دول ولا كتف تمساح النيل مرعي حماد، والراجل من دول — اللهم صلِّ ع النبي — طول النخلة، العرض عرضين كما قماش المحلَّة ... العيون تضرب شرار وتضرب رصاص ... الرقبة كما رقبة تمثال نهضة مصر ... الأكفُّ غليظة وسميكة كما شاويش في سجن مصر! الرجل الأفريكي هو طرزان الحقيقي، ولكن على طيِّب، يبدو أن الأقوياء دائمًا طيبون، والأشرار فقط هم الضعفاء، ضعفاء الأجسام أو النفوس، والنتيجة دائمًا واحدة! الأفريكي هو طرزان الحقيقي وابن لندن الشامخة

يبدو معه ليس شيتا، ولكنه نسناس، قلبوا الآية أولاد الهرمة، جعلوا طرزان هو الأبيض والأفريكي هو العدمان الصدمان صاحب المائة علة وعلة! كذابون وغشاشون أولاد الهرمة، أنا أتحدَّاهم جميعًا إذا لم يكن الواحد من الأفريكي يفضَّل من الأوروبَّاوي عشرة! كيف استطاع بتوع أوروبا الصُّفْر العدمانين الدبلانين أن يهزموا عمالقة أفريكيا؟ حكمة الله أن بتوع أوروبا عندما هزموا الأفريكان هَزموا الجدعنة في نفس اللحظة، قبل هذه العاركة المهببة كانت الجدعنة لها قواعد ولها أصول، الراجل يدخل للراجل بالباط، الساعد بالساعد، المشط بالمشط، المقلب بالمقلب، الرأس بالرأس، كان العراك والخناق بالمكشوف وعلى عينك يا تاجر، وكان الراجل الجدع دائمًا يغلب، ودائمًا ينتصر، ولكن العلم — الله يجازيه — قلَب الموازين وشقلب حال الدنيا! لم تعُد الغلبة للراجل الجدع ولكن للراجل المتعلم، وكان بتوع أفريكيا جدعان وبتوع أوروبا متعلمين، وعندما دارَت المعركة كان النصر للمتعلمين والهزيمة من نصيب الجدعان، وماذا يفعل راجل جدع طويل وعريض أمام راجل آخر مش جدع ولا مؤاخذة ومعه مسدس في حجم الكف ويقتل مية وألف، ولكن ستر الله أن الموازين لم تنقلب إلى النهاية؛ فالذي حدث بعد ذلك نستطيع أن نتصوره، فعندما انتقل المسدس من يد الراجل الأصفر الدَّبْلان العدمان المتعلم، إلى يد الراجل الأسمر المتعافي المليان المتعلم، دارَت الدوائر على الأصفر العدمان، فترك أفريكيا وهرب كما أرنب جربان مسلوخ لا يصلح حتى للدبح على ملوخية!

أنا رأيْت راجل أفريكي في قريةٍ على بُعد كام كيلو من أكرا، راجل تمام طوله مِتران، وعرض صَدره كعرض وسطك، وكتفه كرأس أبي الهول، ولابس حرام تمام، ومعاه فلوس تمام، وداخل حفلة فيها كام ولد عدمان هفتان أوروبَّاوي بيرقص! الأفريكي الهُمام الصنديد كما عنترة العبد جلس يتفرج، ويشرب تمام آخر تمام، لم يهتز ولم يتحرك، وولد هفتان أبيض من كام كأس ترنَّح وتدروخ، ونهض ثم جلس ثم نهض ثم جلس ثم نهض ثم طرش! مَنظر مش تمام، ثم تشاجَر ورفع كرسي خزران أمتن من كرسي الظَّابِط، والأوروبَّاوي الذي كان معه خاف فهرب، ولكن الولد الدايخ رفع الكرسي ولم يتحمله فسقط الكرسي وهو معه على رأس الأفريكي التمام … وهتفْت في أعماقي مسرورًا كنسناس على الشجرة، يا مساء الجمال، ستصهلل القعدة وتحلى، الراجل الأفريكي التمام سيرقع الواد الأوروبَّاوي علقةً ساخنةً وسنتفرج، وعلى الأفريكي التمام مهمة الانتقام من الأوروبَّاوي الأصفر العدمان لعشرة أجيال من العذاب! ولكن الأفريكي التمام ركَن الكرسي على جانب، وساعد الأوروبَّاوي على النهوض وابتسم للناس الجالسين كجنتلمان وشرب

كأسًا من الويسكي وسكتَ في أمان الله! ولكن الولد الأوروبَّاوي العدمان الصدمان أخذَته الجلالة أكثر ... نهض من جديد واتجه نحو الأفريكي التمام يضربه، حكمة الله أنه ساعة القضا يعمى البصر ... لو أنا من الولد الأوروبَّاوي وهذا الرجل الأفريكي التمام عليه فلوس للعبد لله لصهينت، لو أنا ماشي في الطريق ولزقني هذا الأفريكي على قفاي لابتسمت، لو أنا صاحب الأفريكي التمام لعملْت له ألف حساب، الهزار معاه بحساب، والظُّرف بحساب؛ لأنه لو جاء يوم وتحاسبْت معاه بالتمام، لكان أهون منه يوم الحساب!

المهم، الولد الأوروبَّاوي اندفع يترنَّح نحو الأفريكي التمام، ورفع يده الممصوصة كفرع مكرونة اسباكيتي، وكانت رفعة مهببة، ضربه الراجل الأفريكي التمام بمشط رجله فطرحه خارج الحفلة، ما رأيك دام فضلك كل العيال الأوروبَّاويين نهضوا كخيل السباق وهات يا رمح في أنحاء المكان، أنا نفسي خفْت أن يظنني الأفريكي التمام أوروبَّاوي من إسبانيا أو باليِّت خالص من جزيرة مالطة ... تعرف عملت إيه؟ فشخت بُقِّي كأنني إسماعيل يس؛ لكي أبدو مبسوطًا ومسرورًا وآخر مزاج، ولكي يظنني الأفريكي التمام مولود على هذا الحبور والانبساط، ولكن أنا نفسي كنْت غلطان غاية الغلطان؛ لأن الرجل الأفريكي الطيب لم يكن يريد أي شر بأي أحد! نهض كما ملك في حفل تتويج ورقص، وحيا الجميع واعتذر للناس أجمعين، ولم يكن في حاجة إلى أن يعتذر!

من أين تأتي الصحة الحديد ولا سِباع الغاب للرجال الأفريكان؟ من أين؟ مع أن الإشاعات الهوليوودي تحلف وتُقسِم وتؤكِّد أن الأفريكي غلبان ولا بتاع يانصيب، فقير ولا هندي، مريض ولا نزيل في القصر العيني، أنا يا أيها الناس دخلْت قرية أفريكي وسط الأحراش مع راجل أفريكي طيب اسمه «أصاري» يعرف خمس كلمات عربي: إزيك، وبقشيش، ويا سلام، ومع السلامة، ومش ممكن! الراجل أصاري الطيب كان عسكري جيش في بلدنا أيام الحرب، لعله واحد من الذين لهفْت منهم برنيطة أو عجرتُه كام زلطة على أم رأسه تحت نفق الهرم ... كان هو منذ خمسة وعشرين عامًا أفريكي صايع وكنت أنا أفريكي أصيع! وعندما نشبَت حرب هتلر وموسوليني كان الأخ أصاري في العشرين من عمره، جِتَّة ولا حنفي محمود بتاع كابري، قوي كضبعٍ شبعان في غابات موشي، ولم يكن له في الحرب — على رأي مُدرِّس العربي — جملٌ ولا ناقة ... ولا حتى حمار! ومع ذلك عكمه الإنجليز مع عشرين ألف غاني شباب مثله وربطوهم في الحبال، وأخذوهم إلى الشاطئ، وفرزوهم وفنَّطوهم ولبسوهم عساكر وألحقوهم بجيش الحلفاء! تجارة الرقيق اشتغلتْ تاني على ودنه، ولكن على نمطٍ آخر! زمان كانوا يخطفون الأفريكان للشغل،

وفي القرن العشرين خطفوهم للحرب. وزمان باعوهم للتجارة! وانخطف من أفريكيا زمن الحرب العالمية الثانية خمسة ملايين راجل، عاد منهم للوطن عدة آلاف لا تزيد عن مائة ألف ... يمكن! والباقون ماتوا في الرمال وفي الأدغال، وأهلكهم البرد في أوروبا، وأكلتْهم السحالي في أحراش آسيا ... ولا حمد ولا جميل ولا حول ولا قوة إلا بالله! الأخ العزيز أصاري كان شابًّا كالوردة عندما أقلعت به سفينة بضاعةٍ جربانة في أمسية صيف من ميناء أكرا إلى الشرق الأوسط، كانت معركة العلمين شغالة، والخواجات الإنجليز مات نصفهم من صهد الصحراء، ومات النصف الآخر من صهد الألمان! والعساكر الإنجليز مثل التين البرشومي خرعين وممهمطين، وكان لا بد من رجالة مثل أصاري ليصكُّوا الألمان صكًّا عنيفًا! ودخلَت الباخرة ذات مساءٍ ميناء الإسكندرية وعليها شحنة عساكر، وحلَّقَت فوقها طيارة آلي ألماني ناصحة هبدت المركب طوربيد ونسفتها وطيَّرت العساكر الأفريكي أشلاء، ولكن أصاري وعشرات آخرين استطاعوا الإفلات من جحيم الطوربيد وسبحوا حتى الشاطئ، وأقام أيامًا في مستشفى عسكري ثم سحبوه إلى كوم حمادة في البحيرة، وكان هناك كامب أفريكي للتدريب، وبعد أسابيع قليلة سحبوه من جديد إلى الصحراء، ومعركة العلمين كانت شغالة، عجنة سودة خرج منها أصاري حيًّا، وخرج فيها الألمان من العلمين، ولكن أصاري لم يتركهم، زحف خلفهم حتى تونس وعبر البحر إلى إيطاليا وقطع أوروبا كلها حتى دخل برلين! وعندما احتفلوا بالهدنة في برلين عزفوا أناشيد كل الدول المشتركة في النصر إلا نشيد أصاري، لم تكن غانا على الخريطة، ولم يكن أصاري إلا مجرد أفريكي زنجي، يخدم البيوت أو يخدم في الحرب ويأخذ في النهاية حسنةً ويتوكل على العزيز الجبار! وتوكَّل عمُّنا أصاري إلى مصر ثم نقلوه إلى كامب في الجيزة ليشم الهواء ويتمنجه! ولكن أصاري كان يحب كوم حمادة، تركها صحيح ولكنه ترك قلبه هناك، وهو مسلم من أشانتي وتزوج مسلمة من عرب البحيرة، وأنجب منها ولدًا، ولكنهم خطفوه مرةً أخرى ذات مساءٍ؛ ليشحنوه في مركب بضاعة ليعودوا به إلى أرض الوطن، وفكَّر أصاري عميقًا والمركب واقفة على رصيف إسكندرية، هل يترك الزوجة والطفل في كوم حمادة ويرحل إلى أكرا؟ أم يترك الأهل والخلَّان في أكرا ويبقى مع الزوجة والطفل في كوم حمادة؟ أصاري رغم التفكير العميق لم يستطع أن يحسم الأمر في النهاية، تحركَت المركب وغادرَت الرصيف والميناء وبحر الإسكندرية وهو لا يزال يفكر ... وعندما وصَل إلى مضيق جبل طارق والمركب طالعة على المحيط الأطلنطي استقرَّ على رأي: لا مانع يرى الأهل والخلان في أكرا ثم سيعود ليعيش مع الزوجة والطفل في مصر! وعندما شاهد أصاري شاطئ

غانا بعد طول غيابٍ بكى ولا معددة في ميتم، وأنا قتيل المحبة يا جدعان لكين الوطن غالي، لفيت ما خليت بلاد الناس لكين الوطن غالي، على رأي يوسف شتا مؤلف ومطرب شعبي! أصاري عاد إلى بلاده وكانت عودتُه أحسن، لو أن كل الأفريكان الذين خرجوا أيام الحرب استقروا في الخارج لاحتاجَت أفريكيا إلى حربٍ عالمية أخرى لكي تتحرر، هؤلاء العيال الشجعان، عساكر أفريكيا الذين انسلخوا في فرن الحرب، ستقوم على أكتافهم أعنف وأشرف حرب لتحرير القارة! الأفريكي الذي كان محبوسًا كالفأر في بلده لا يعرف أستراليا من إيطاليا، لف ودار وشاف بلاد الله وخلق الله وحارب وانتصر على رجل أوروبَّاوي آخر، أبيض وملظلظ، ألماني صحيح، ولكنه زي الإنجليزي والفرنساوي والبلجيكي وأحسن، على الأقل الألماني هزم الدول جميعًا والأفريكي هزمه ... بين الحطام والأشلاء والجثث المتناثرة اكتشف الأفريكي الطيب نفسه، وها هم عدة ألوف من الرجال أبناء أفريكيا العظيمة عادوا إلى الوطن الأم مدرَّبين مسلَّحين مقاتِلين شافوا الهول وخاضوا حرب الأدغال والصحراء والجبال وتعلموا الكفت نفسه، خبرة ما أروعها ستحتاجها أفريكيا في قادم الأيام لتتحرر، وهؤلاء الرجال البواسل سيكونون قادة جيوش نكروما، وأحمد سيكوتوري، ولومومبا، وكينياتا ودكتور باندا، ولكن هذا حديث آخر يحتاج إلى شرحٍ طويل، وستعلمون عندئذٍ كم كانت الحروب شرًّا وخيرًا، نقمةً ونعمةً، حركةً وبركةً! المهم الراجل أصاري عسكري الحرب السابق أخذني بالحضن فأنا من بلد الحبايب، وسحبني من إيدي وفرَّجني على غانا، من وينيبا على شاطئ البحر في الجنوب، إلى أكسومبو على شاطئ البحر في الشمال، ومن أكرا إلى خماسي في الداخل، حيث الأشانتي والكاكاو وغابات الوحوش الكواسر! وفي لفَّة من دول سحبني من إيدي على قرية أفريكي داخل غابة، وعندما وقع بصري على القرية كدْت أبكي، أنا طالب من الله ولا يكتر على الله أن تصبح القرية في بلدي مثل القرية الأفريكي ... تذكرْت قريتنا قناطر القرنين منوفية، ومعدية جدي الشيخ معوض، وشجرة الجميز التي عند ستي عديلة، وبيت الراجل خميس المخوخ بتاع الترمس، ومكنة طحين سوارس أفندي، والبيوت من الطين مدهونة، ومن روث الجاموس مدهوكة، ورائحة تغم القلب وتسد النفس وقرف أزلي، وعيال مرضانين هزلانين قُرع أكثرهم عُمي، يتمنى الواحد منهم أن يهرب من القرية إلى مصر أم الدنيا؛ ليأكل عيش سخن وفول مدمس وطعمية، أحلام لا تتحقق للأكثرية العظمى منهم، فيبقى في القرية ملومًا محسورًا، وعندما يبلغ الأربعين يصبح هضيمًا عضيمًا يعني عضم! وتراه فتقول له: يا جدي، ويموت في الخامسة والأربعين، ويكذب عليك فيقول لك أنه رأى هوجة عرابي وموكب أفندينا إسماعيل والبنت السنيورة ملكة فرنسا!

القرية الأفريكي يا هوه وسط الأحراش في منطقة مفتوحة، البيوت أكواخ تصميم المهندس الأفريكي العبقري الذي تلقى العلم في أدغال أفريكيا، علمَته الطبيعة وألهمَته الحق فلم يشيد بيوتًا كعُلب السلمون، ولم يصنع قرية كمستشفى أم المصريين! البيوت على حسب الجو، والبناء ليس مجرد طوبة على طوبة، ولا مونة وزلط وأسمنت، ولكن البناء قطعة من النفس، إن فسدت القطعة فسد الأصل والبناء تاريخك وأصلك، وأنت تأخذ من المبنى وتعطيه، وكل بلد ولها سلو، كما تقول أمي، وسلو أفريكيا هو الأكواخ ... ولكن المهندس الأوروبَّاوي يريد أن يخرب النفَس الأفريكي، في المدن أقام لهم مباني ولا هيلتون، أدوار بعضها فوق بعض كأنها سراير بحَّارة في مركب جاز! ولكن الأفريكي الأصيل في الغابة رفض أن يتأورب. الكوخ قطعة من الفن الرفيع، تدخله في عز الحر فتشعر أنك على ساحل الريفييرا، وتدخله في عز البرد فتشعر أنك في أفريكيا، وتدخله ساعة المطر فلا تسمع إلا عزف الماء على سقف الكوخ؛ لأن المهندس الأفريكي العبقري صمم الكوخ حسب الجو، جدران الكوخ من الليف، وعمدانه من شجر جوز الهند، وسقفه من الخزران البامبو، مقوس حتى ينزلق المطر عليه، والفرش من جِلد الحيوان، وفي أيام الصيف الحارة لا ينام الأفريكي فيه، يفرش جلد غزالٍ ناعم يجلب الطراوة اللازمة وينام في ساحة القرية، الكل ينام هناك، وفي ليالي الشتاء يفرش الأفريكي جلد فهد أو جلد نمر وينام داخل الكوخ ويتقلب! وبين الكوخ والكوخ عشرة أمتار، وهو معرَّض للشمس والهواء من كل جانب، والقرية كلها دائرية وحدائقية، يعني كلها حدائق. والعيال كما أولاد الدبة، عرايا كما ولدَتهم أمهاتهم، سِمان كما البط المزغَّط، لطاف كما النجوم الزاهرة! إذا جاعوا فالموز على قفا من يشيل، الموزة كما الفقوسة في بلدنا، والمانجة على الشجر حايرة تطلب الأكَّال! وجوز هند يأكل ويشرب ويحمد الباري المتعال، والعيل اللي في اللفة يستطيع أن يصطاد أرنب، والواد الصبي يصطاد غزالًا، والواد الفتى يصطاد جاموسة يذبحها ويسلخها ويأكل فيها كما أبونا الغول!

الصحة إذن عال وبمب والحمد لله، والطعام وفير وكثير وكله دسم وزفر على رأي ستي ... والطبيعة مفتوحة، والوزة قبل الفرح مدبوحة، على رأي عمِّنا الكبير بيرم التونسي!

في هذه القرية أنا رأيت العجب، بنت بيضة كما الحليب، مخنصرة ولا السنيورة الحلوة، شعرها أصفر ولكن مجعَّد! شفايف سمينة وبضَّة، عيونها كما عيون الغزالة الحلوة! والبنت معها سيارة، ولها كوخ، وعندها ضيعة، ولكنها مع ذلك صايعة وضايعة، مزجورة مهجورة من الأفريكان، إنها بذرة فاسدة تركها راجل أوروبَّاوي تزوج من سيدةٍ أفريكية، تزوَّجها وماتَت ومات هو الآخر بعد الاستقلال، ولكن البنت البيضة فضَّلَت الحياة

في القرية، معها ستها تمام كستِّنا الغولة، وهي وستها تعيش في كوخٍ واحد، البنت كانت في اسكتلندا مع ستها الأخرى، ستها الأخرى تعيش في جلاسجو، بيضة كما الشمع، مربربة كرغيف عيش قمح روسي، عيونها زرقاء كما المحيط، ولكن البنت الأفريكية حنَّت إلى الأرض التي قفزت من بطن أمها عليها، فعادَت إلى أفريكيا، عادَت لا هي أفريكية ولا هي اسكتلندية، ولكن بزرميط وخليط، وحاجة لا تسر إنجليزي عدو ولا أفريكي حبيب.

والبنت لها مشكلة، المرأة في أفريكيا محترَمة ومقدَّسة، هي أصل القبيلة وهي أصل الحياة، والواد يرِث خاله ولا يرِث أباه، والمرأة تخرج للعمل والرجل يجلس مجعبز في الغابة، وإذا كان الاقتصاد هو محرك التاريخ عند ماركس فالمرأة هي محركة التاريخ في بلاد الأفريكان!

المرأة هي الغاية، وهي النهاية، وهي البداية، وهي المصير! ولكن بنت أفريكيا الخليط محتقرَة ومهانة ... إنها تشعر بأنها أقل من امرأة ... بأنها رجل ... وهي تريد أن تكون امرأة. العيال الأفريكان يشتهونها ولكن لا يتزوجونها، ولأنهم أخذوا منها موقف عدائي فقد أخذَت هي الأخرى نفْس الموقف. وما داموا يشتهونها فستمنع نفسها عليهم، ولكن — بنت المجنونة — ستمنح نفسها لكل الرجال الآخرين ... وبشرط أن يكون رجلًا أبيض. وعندما هبطْت القرية ذات عصريةٍ طرية كانت البنت هناك تحت شجرة جوز هند تشرب بيرتها وأحزانها ... وفي النسيم العليل بكت واشتكت وفضفضت بالكثير ... أزاحت عن نفسها الأحزان وألقتها فوق رأسي، أنا الحزين ابن الحزينة أصبحْت مخزنًا للأحزان! بعد خمس سنوات من الوحدة أصبحَت (ميوريال) مومسًا، ولكن بالمزاج، وهي الآن تنتقل من كوخ رجلٍ أبيض إلى كوخ رجلٍ أبيض، في وضَح النهار. فإذا عز الرجل الأبيض، انتقلَت ميوريال من كوخ رجلٍ أسود إلى كوخ رجلٍ أسود ولكن في الظلام! عيشة مهببة ومغبرة، ولكن هكذا كُتِب على ميوريال أن تدفع الدين الذي لقيَته أفريكيا على يد أقارب نصفها الأبيض. وعندما حان وقت الرحيل من القرية الأفريكي الحلوة خرجَت ميوريال تودعنا مزهوَّةً؛ فنحن على أيةِ حالٍ بيضٌ وإن كنا في بياض عجين الردَّة! وعند باب القرية الأفريكي أمسكَت البنت بجلبابي السكروتة تكاد تمنعني من الخروج، البنت المسكينة تحلم كأنها ممثلة في فيلم من إنتاج هوليوود! وعندما سحبْت هراديبي منها ووليْت فرارًا من وجهها وقفَت على تلٍّ قريب تلوح لنا في جنونٍ كأنها بقايا مركب غرقانة في جزيرة ونحن مركب إنقاذٍ تمخر البحر من بعيد!

ميوريال المسكينة، يا بنت أوروبا القاتلة، ويا بنت أفريكيا الضحية، الله يتولانا جميعًا برحمته، والله معها ومعنا وإياكم.

أميرة ... ولكن في المنام

إذا كان الإنسان حيوانًا ناطقًا، ففي بلاد الأفريكان الإنسان حيوانٌ راقص ... الرقص هناك على «البهلي»، وعلى عينك يا تاجر، واللي ما يتفرج يشوف. الراديو يرقص كثيرًا ويتكلم قليلًا، والأخبار هناك على فتراتٍ بعيدة والكلام بحساب. وتمثيلية واحدة فقط في اليوم ثم الموسيقى الراقصة على ودنه، وحتى التمثيلية الواحدة بطلها راقص وغلبان وصدمان، وواقع في حب رقَّاصة، وليس الإنسان وحده هو الذي يرقص، كل شيء هناك يرقص حتى الشجر والبيوت. فعندما تهب الريح من المحيط الأطلسي على الساحل تتراقص أشجار جوز الهند الجميلة الرشيقة، فتبدو وكأنها بنتٌ حلوة شعرها منكوش! وبيوت الساحل كلها أكواخ، وهي الأخرى ترقص عندما تهبُّ الريح، فيُخيَّل إليك أن ساحل غانا كله حاضر في حفلةٍ راقصة ليس لها مثيل. وفي الليل يتحول ساحل غانا كله إلى فرقة موسيقية تصدر ألحانًا غايةً في الغرابة، وغاية في الإرعاب. ملايين من الضفادع، وكل ضفدعة وضفدع في حجم القطة. وهات يا شخر ويا نخر، وبصوتٍ أعوذ بالرحمن الرحيم!

ولكن الغريب أنها متناسقة، يضمُّها إطار من الهارموني، وتَسمع قطَعًا موسيقيةً غايةً في الحلاوة والجمال، وكأنها الفرقة الضفدعية بقيادة أحمد فؤاد ضفدع!

كنت في شارعٍ مرةً أسأل عن مكان، واتجهْت إلى شابٍّ مهيب المنظر كأنه ضابط في جيش هانيبال، له لحية ولا لحية ثائر من كوبا، محترم ولا البابا بيوس، وعندما بدأ يُجيب على سؤالي، انبعثَت الموسيقى فجأةً من جهاز راديو قريب، فأهملني وأهمل سؤالي ونزل رقص يا ميت ندامة، كأنه جعان جوع الإبل لم يذق رقصًا منذ عام.

وفي وينيبا أجمل وأحلى قرية على الشاطئ الغربي لأفريكيا رأيت عُمالًا في عز الحر، عرايا كأنهم على بلاج، والشغل داير، والرقص داير في نفس الوقت. ورئيس العُمَّال ماسك لهم الواحدة، والدَّق على الحجر متناسق متجانس يعزف نغمة غايةً في الحلاوة والهداوة

والجمال. رئيس العُمَّال — كما عرفْت — ليس أحسنَهم عملًا ولكن أحسنهم رقصًا، وهم بدونه لا يعملون ... والصوت كما صوت الصعايدة الجدعان أبناء بلدي، أتمنى على الله أن تسافر إلى أفريكيا بعثةٌ فنونٍ شعبية وستكشف العجب العجاب. ذات صباحٍ جميل استيقظتُ من نومي على أصواتٍ هادرةٍ صادرةٍ من قلب الغابة. كان اليوم عيد في وينيبا، وفي هذا العيد يعود الأفريكي إلى طبيعته. يخلع ملابسه ويرتدي ملابس الأجداد، وسترى في المهرجان نفْس المناظر التي تُصورها هوليوود على أنها أفريكيا اليوم ... الوجوه المخطَّطة بأبيض وأحمر، والعظم الذي على المنخار، والريش المدكوك في الشعر، والملابس جلد غزال وجلد حمار، والحِراب عليها جماجم وعليها جثث طيور! مناظر هوليوود الكذابة ليست إلا ذكرى يحتفل بها الأفريكيون مرةً كل عام. المهم أنني استيقظْت ذات صباحٍ جميل على أصواتٍ هادرةٍ صادرةٍ من قلب الغابة، وانخلع قلبي وأسرعَت دقَّاته لما سمعتُ. أقسم لكم وأحلف بكل كتاب أن الصوت شدَّني إلى القاهرة وإلى الجامع الأزهر صباح يوم العيد الكبير، نفس التراتيل، نفس الأنغام، كلكم، لا بد تعرفونها، وكلكم لا بد تحفظونها «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله بكرة وأصيلًا، لا إله إلا الله، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ... الكلام طبعًا مختلف، والمعنى طبعًا يختلف، ولكن النغم واحد، والصوت يتردد في أرجاء الغابة، ورجْع الصوت يرتعش في جو القرية، كما تنداح مياه بحيرة سقط فيها حجرٌ كبير! أغرب شيء على هذه الأرض أن البشر لا يختلفون كثيرًا، كلهم من آدم وآدم من تراب، الاختلافات بسيطة ويسيرة، وغير ذات وزنٍ كبير. ولكن بعض البشر استغل الفرصة فلهف امتيازاتٍ بسبب هذه الفروق. البعض خطفوا السود وباعوهم في المزاد، وخطفوهم وصدَّروهم لوش المدفع في الحرب، وخطفوهم وأخذوهم إلى بلادهم، ليصبح البيض سادةً والسود كما جرابيع الصحراء! أي فرقٍ بين الأسود والأبيض إلا كما الفرق بين المرور على الشمال في إنجلترا وعلى اليمين في مصر؟ هكذا سألَت العبد لله البنت القمحية الشقية مارسيل في حفلٍ راقص كبير في أكرا. وأنت لا تلتقي بالشعب الأفريكي ولا تعرفه إلا في حفلة رقص. والرقص هناك ليس حفلةً ولكنه شيءٌ مقدَّس، ولأنه شيء مقدس فله قواعد، وله أصول، وله مواعيد كما الصلاة، لا تتأخر دقيقة ولا تتقدم لحظات! يوم السبت بعد المغرب تتوقف الحياة كلها ليبدأ الرقص، والذي لا يرقص في غانا كالذي لا يصوم رمضان في مصر. قد يُوجَد من لا يحسن الرقص، ولكنه لا يجرؤ على الاعتراف ... حتى السؤال نفسه إذا وجَّهتَه إلى إنسانٍ منهم فهو عيبٌ لا يليق! وتذكرة الدخول إلى المرقص بجنيه أخضر مقرقش كما السميط الطازة ... هذا إذا كان الراقص وحده، أما إذا كان الراقص

معه بنتٌ ترقص فالدخول بنصف الأجر ... ذلك أن المجتمع الأفريكي مجتمع متحضر فشر مجتمعات أوروبا، ولا تستطيع أبدًا أن تجد شلة رجالة بشوارب مع بعض، أو شلة نسوان بكعوب عالية مع بعض. الرجل والمرأة جنبًا إلى جنب، في الغابة، وفي المصنع، وفي المكتب، وفي المرقص.

والبنت مارسيل أفريكيةٌ صميمة، بنت بلد ومثقفة، وحلوة كما حبة مانجة عويس، لونها كما لون ثمر الدوم، جسمها كما الأستك، شعرها أكْرَت صحيح ولكن مرفوع إلى أعلى، آخر موضة وآخر مزاج. ظلَّت ترقص مطهومة لمدة ساعة، لو حصان سبق يجاريها لَطَب ميِّت من شدة الرهقان. والبنت مارسيل اللهم صلِّ ع النبي صحيحة البدن كما مهرة مرتاحة وشبعانة في يوم مهرجان! ومع ذلك فحياتها كانت أشقى من حياة العبد لله. أبوها مات وهي على عتبة المدرسة الثانوية، وأمها هي الأخرى آثرت الرحيل إلى دار البقاء بعد زوجها بثلاثة أعوام.

واحتارَت مارسيل واحتار دليلها، ثم خرجَت من المدرسة إلى الشارع، وسرحَت في أكرا بموزٍ مشوي، وحكمة الله أن الموز هناك ينشوي كما نشوي الذُّرة على شارع الكورنيش! وكانت غانا تغلي كلها وقتئذٍ وتشتعل بالنار. الثورة تشمل الغابات والجبال والوديان، ومارسيل تسرح وراء الرغيف، وتطفح الكوتة من أجل لقمة العيش. ولكن الشقاء لم يمنع مارسيل من الانتظام في صفوف الثورة، ولم تمنع الثورةُ مارسيل من العودة إلى المدرسة.

هكذا أصبحت مارسيل ثائرةً وتاجرةً وتلميذة ... ولكن مارسيل استطاعَت أن تصنع كل هذا، وأن تجمع بين التجارة والثورة والمدرسة في آنٍ واحد. ثم قُدِّر لها فجأةً أن ترتاح، مات خالها وكان على شيء من اليسار. وبالنقود القليلة التي ورثَتها أصبحَت مارسيل صاحبة دكان في «الكنجزاوي» وتفرغَت للمدرسة وتركَت الدكان لشقيقٍ كان يصغرها بأعوام. وتخرجَت مارسيل من الجامعة، وسافرَت إلى إنجلترا وتخرجَت من جامعة لندن وعادَت لتملأ الحياة ضجيجًا وعجيجًا وأملًا بغير حدود. البنت القمحية الشقية مارسيل الجميلة لم تتزوج بعد ... مع أن الرجالة في أفريقيا على قفا من يشيل! وأي رجلٍ هذا الذي يرفض أن يشيل مارسيل على أم رأسه؟ ولكن لسببٍ غريبٍ مارسيل لا تريد أن تتزوج. كانت دائمًا تخشى الزواج؛ لأن الزواج يعقبه عيال، وقد يجيء الموت، وعندئذٍ يا ميت ندامة على العيال وعلى اللي خلفهم!

هكذا حدث لمارسيل في سالف الأيام، وهي تُدرك طعم الشقاء وتعرف مذاق الضياع؛ ولذلك فهي لا تريد أن تُطعمه لمخلوقاتٍ في علم الغيب. وهي تعتقد أن وجودهم دائمًا في

الغيب خير لهم وأبقى! على أيةِ حال، وعلى كل حال، مارسيل الشقية القمحية التي تعمل في النهار وترقص في الليل، وجهٌ حلو من وجوه أفريكيا، وجهٌ صلب رغم التقاطيع الجميلة، وقلبٌ شجاع رغم الرقَّة والحنان، لهطة بسبوسة ما أحلاها وما أعرض وأعمق حياتها! ولكن ما أبعد الفرق بين مارسيل وكمفورت، وكمفورت كلمة في القاموس الإنجليزي معناها المريحة. الْتقيْت بالسِّت المريحة إياها في حفلة رقص. جالسة على كرسي رجْل على رجْل ومعنزة كما شيخ غفر متعين حديثًا! وجهها بزرميط، لا هو أفريكي ولا هو جريكي ولا هو أي شيء ... عيون أشهد وأختم وأبصم أنها ولا عيون البقر، عيون تضرب شرار وتضرب رصاص، عيون كاسرة ولا عيون ملك مجنون على قبيلة، آخر تعب! ومناخير زي الكوز ولكن فيها شيء. وشفايف ... لا ليست شفايف ولكن شفاتير، وكل شفتورة وشفتورة كما العيش الشمسي بتاع زمان! وشعر كما شوك نابت شيطاني في رأس صلعاء! وجسم ... سبحان العاطي الخلَّاق، مفصَّص، معضَّل، مدكوك، موزون آخر ظبط وآخر تمام.

والبنت كمفورت ترطن بالإنجليزي وبطريقة بتوع لندن تمام. وملابسها ليست على ما يُرام. ملابس تكشف أكثر مما تخفي، والبنت نفسها لا تعرف الفرق بين التحرر والانحلال. البنت جاهلة وقوية، وعينها غليظة كما كانت تقول ستي في سالف الزمان! وعند الرقص رقصَت ولا فراشة، ودكَّت الأرض ولا حصان، وداخ الذي رقص معها ولم يصبها أي شيء من الدَّوَخان!

البنت جالسة مشمأنطة قرفانة تحتاج إلى غلق لمون بنزهير، أو غلق حامض، على رأي إخوانَّا في لبنان!

البنت أمُّها أميرة — هكذا قالت — وهي بالتالي أميرة، ولكن التطور الكاسح الماسح في أفريكيا اليوم بطَّط تحت رجليه كل الكلام الفارغ الذي كان محترَمًا ومقدَّسًا أيام زمان! وأكم أمراء كانوا في أفريكيا زمان، أكم ملوك كانوا في الأيام الخوالي، كل واحد كان صايع وضايع كابس على أنفاس قبيلة داخل الغابة وعامل أمير! كل صعلوك مهتوك راكب على أعناق حفنة من الناس وعامل ملك الملوك! البنت لا تزال تعيش في الماضي، ولذلك فهي تحتقر أفريكيا من أعماقها. هي ليست أفريكيةً إلا بالمولد، ولكنها تعيش في لندن من زمان. سألتُها في أي مكانٍ في لندن كانت تعيش؟ لم تستطع أن تجيب على السؤال، فزاغَت وقالت: في اسكتلندا، والعبد لله لم يذهب إلى اسكتلندا، ولذلك صدقْت العناوين التي ذكرتها. كذابة هي قطعًا ومهروشة الدماغ وأميرة ... ولكن في المنام! وهي نجمة مشهورة في اسكتلندا، الصحف تنشر صورها، وتنشر أخبارها، ويتردد اسمها في الراديو في نشرات الأخبار، وهي

تعمل فنانةً في بلاد الإنجليز، وأكرا لا تعجبها لأنها قرية، وأفريكيا ليست على مزاجها، والفن كله والعالم كله والنعيم كله يا قلبي ... في بلاد الإنجليز!

سألَتني عن مصر باستعلاءٍ: هل فيها تماسيح؟ هل تعيشون في الصحراء؟ وتحسَّسْت — لا مؤاخذة — مداسي؛ لينوب عني في الجواب!

راقبْت البنت المعنزة كثيرًا، وفي كل مرة كان يزداد إيماني بأن صواميل مخها مفكوكة، ومسامير عقلها محلولة، وكل أبراج التفكير في رأسها ذهبَت مع الريح!

سألْت مارسيل عن كمفورت فكشفَت لي عن سرها. البنت إياها صايعة بنت صايعة، ولكنها بالنسبة لبنات أفريكيا حلوة بلا جدال! اشتغلَت في أكرا خدامة عند واحد اسكتلندي مهروش الدماغ، عوج رأسها فعوجَت مشيتها. أصبحَت معنزة كما الغراب. وعندما دقَّت طبول الثورة في أفريقيا سحبها الاسكتلندي معه إلى هناك. وأن تكون البنت خدامةً في أكرا شيءٌ معقول، ولكن في اسكتلندا يصبح الأمر ... يا حفيظ! وتعرَّفت البنت المهروشة إلى ولدٍ من جامايكا كما الواد بتاع كريستين كيلر ... معه مطوة مفتوحة على الدوام، وعنده ملهى ليلي في بدروم تحت الأرض، تجتمع فيه كلَّ مساءٍ عصابةٌ من الصيع والأنطاع! وسحَب الولد الجامايكاوي البنت من بيت أسيادها إلى الملهى الليلي وهات يا رقص كل مساء. ومضى عامٌ وتصورَت البنت نفْسها رقاصةً ولا جوزفين بيكر في زمانها! أخذَت تتمرد وتتمرد ثم هجرت الملهى واسكتلندا كلها وذهبت إلى لندن تبحث عن عمل في حي سوهو الشهير! ورحَّب بها الجميع كخدامة ولكن ليس كرقاصة. ولما انقفلَت جميع السكك في وشها، هجرَت لندن وعادَت إلى أكرا تبحث عن مكانةٍ تحت الشمس وليس عن مكان! مؤهِّلاتها كلها نظرة ازدراءٍ لكل ما هو أفريكي، ولسان معووج يرطن كما إنجليزي مولود في برمنجهام، مشمأنطة ومعنزة وجاهلة أجهل من حمار. فلما فشلَت في أكرا اخترعَت حكاية الأميرة، وراحَت تتردد كل مساء على المراقص تبحث عن واحدٍ غشيمٍ مستعد لتصديق كل شيء ... من أول سمُوِّ الأميرة إلى الفنانة الكبيرة صاحبة الصِّيت الذائع عبر البحار! وهي في كل ليلة تجد رجلًا يُصدِّقها أثناء الظلام، وفي شمس النهار يكتشف أنها أكذَب من مسيلمة، وتكتشف هي أنه أمكر من ثعلب غيطان المنوفية، وهكذا تمضي الحياة في أكرا، الليل كله في المراقص، والنهار بطُوله في الفراش، ولقد كانت كمفورت في البداية امرأةً صايعة فأصبحَت امرأةً دايرة، وستظل تدور حتى تسقط من فرط الإعياء!

كمفورت الصايعة الدايرة ليست وجهًا من وجوه أفريكيا، ولكنها جزءٌ من قفاها! والبنت كمفورت ليست حالةً شاذة في أفريكيا، ولكنها مخلَّفات الحكم الأجنبي هناك. مضى

الاستعمار خارج أفريكيا وترك بصماته على وجه الحياة. أنا شُفت بنت اسمها أودري عاشت فعلًا في لندن ١٧ سنة. هل تعرف العيال الصيع بتوع زمان في مصر؟ أبناء الناس المتريشين المليانين الذين كانوا يسافرون كل عام للاستشفاء والعلاج. والذي يذهب الواحد فيهم شهرًا واحدًا إلى فرنسا ليعود ببرنيطة وبايب وصوت مسلوخ كما صرصار يصوصو في الظلام؟! هل تعرف أثرياء الحرب، الذين استولوا على غنائم من الجيش الإنجليزي أكثر مائة مرة من الغنائم التي استولى عليها الألمان؟ هل تذكر تجارة الخردة والكارتة والأزايز الفاضية ومتعهدي اللحوم والبيض والعيش للمعسكرات؟ أنا أعرف واحدًا منهم كان يسكن في حارتنا، وهي حارةٌ متواضعة، الناس فيها إذا أرادوا شمَّ الهوا طلعوا فوق السطوح؛ لأنه ليس فيها بلكونات! هذا الرجل الغلبان مثل حالي عندما نشبَت الحرب اشتغَل مُتعهِّد كارتة، وبالعربي الفصيح اشتغل مُتعهِّد زبالة في المعسكرات. بعد سنواتٍ أصبح الواد ابن حارتنا راجل غني تمام، خلع الجلابية والشبشب وارتدى بدلة وقميص حرير وكرافتة إنجليزي آخر طراز. حكاية الرجل هيِّنة، ولكن حكاية مراته هي الحكاية اللي عليها القصد والنية، مراته أم ملاية لف وشبشب زحافي، وقمطة على الجبين، وكام عيل مسلوع معلول ماسكين في طرف الملاية حتى لا تهرب الأم منهم وتزوغ. المرأة إياها خلعَت هذا كله، واشترَت فستان موضة، ودهكت وشَّها جير، ودهنَت شفايفها أحمر قوطة، وكانت تدخل حارتنا تقول للستات أنا مستأسفة بدلًا من عواف! ولم يكن أحد في الحارة يدري لماذا هي مستأسفة، ولماذا تدهن نفسها بكل هذه الألوان حتى كأنها أراجوز يتفرج عليه العيال!

الست أم إبراهيم هذه ... هي الخالق الناطق الست أودري الأفريكية التي الْتقيْت معها ذات مساءٍ في بيتٍ أنيق على الساحل الغربي في أفريكيا. الست أودري عاشت ١٧ عامًا في لندن صحيح، جرسونة في محل أكْل وشرْب على رأي شندي فنان بلدنا، وفي لندن الْتقَت برجُلٍ أفريكي طيب كان يطلب العلم هناك. أحبَّت أودري في الرجل عِلمه، وأحبَّ الرجل الطيب في أودري طريقة إعدادها للطعام. وتزوجا وعادا إلى أفريكيا. الرجل مثقفٌ فعلًا وابن حلال مصفي. والست أودري لا تريد أن تنسى الـ ١٧ عامًا في لندن ... شكلها لا يفترق كثيرًا عن شكل العبد لله، أقصد أنني أحلى وأجمل. ومع ذلك فالبنطلون محزق على العظام، ووجهها — أستغفر الله — كصفيحةٍ قديمةٍ مطبقة من كل ناحية، ومع ذلك فالبلوزة تكاد تكشِف ليس عن أكتافها ولكن عن بطنها، والست أودري عندها عربية وهي تسوق، مرتَّب زوجها الطيب ضائع على البنزين والويسكي والبناطيل. ولأن زوجها

واقع في دباديبها حتى صلعته فقد آثر أن يستلف. والسلف تلف والرد خسارة. وهات يا سلف حتى صار أشهر سلِّيف في بلاد الأفريكان، ولما انسدَّت أمامه سُبل السلف تحول من سلِّيف إلى نصَّاب ... كتب شيكات بلا رصيد، وباع أرضًا وهمية، واتسعت أعماله أكثر فأصبح يُصدِّر لتجَّار في الخارج بضاعة في الخيال، وانكشف الرجل الطيب في النهاية ودخل السجن. وقضى في السجن شهورًا طويلة ثم خرج ليجد كل شيء على ما يُرام. البيت مفتوح وعامر، وحساب النور مدفوع، والسيارة أصبحت أكبر وبنزينها أصبح أكثر، شيء واحد تغيَّر في البيت، لم تعُد الست حرمُه وحدَها أصبح لديها عدد من الصديقات على كل لون، وعليهم عدد آخر من الأصدقاء من كل ملة! وغطرش الزوج وصهين؛ فالأكل والحمد له موجود. فراخ في حجم العِجل البتلو، وحمام كما النسور، والويسكي بالصندوق، والفلوس كما القمح في موسم الحصاد. وهكذا تحوَّل الرجل الطيب إلى رجل طيِّع. ولقد تعرفْت على أودري بالصدفة، وكانت نظرة فابتسامة فسلام فرغْي أزلي، فهي أيضًا حريفة كلام، وزكريا الحجاوي بالنسبة لها مجرد مبتدئ ناشئ يستحق الجَلد على ظهره! والبنت قبيحة وسليطة ولسانها كما الكرباج. كنا على ساحل المحيط هربًا من لهاليب النار. المحيط نفسُه حران وعرقان، وحكمة الله أن كل النساء على الشاطئ عواجيز نكاريش وأوحش من العبد لله ويقرفوا الكلب الجربان! هؤلاء هم نساء الطبقة الهاي لايف، وهي الطبقة التي اغتنَت وتريشَت بعون الاستعمار، تحويش العمر كله نازلين فيه بعزقة على البطالة والراحة وشاطئ المحيط. الست أودري رغم الوحاشة والعظام النخرة كانت تبدو جميلةً وسط هذه الباقة من البقر الهولندي السمان! ولكن أكون كذوبًا ابن كذوبين لو قلت لكم إن كل النساء كانوا في حجم سيد قشطة، وحشين كما شيتا في أفلام طرزان، فجأةً هبَّت علينا حسناء كما الحَربة المسنونة، جسمها مشدود كما الغربال، المايوه في حجم منديل اليد، وكل شيء ظاهر وواضح وعلى عينك يا غلبان! سبحان الله، جسم الست فن ولا فن الألحان. الست كما قطعة موسيقية من وضع شتراوس، والست الطعمة تدرك أنها طعمة فتمشي تتقصَّع كما التختروان، ليس على الجلد كله خدشة ولا هبشة ولا لطشة، كأنها مصنوعة من باركيه أسوَد غاية في النعومة واللمعان. كأنها عربية إنسيابية مضروبة بدوكو أسود شغل بلده آخر طلاوة وحلاوة وجمال. قطعة لحم فقط أعلى الذراع مكان التطعيم بارزة قليلًا في الجلد كله ... ولكنها ليست منهوشة ولكنها مختومة فقط، كأنها فخدة بتلو خارجة من السلخانة وعليها ختم الدكتور. ورأت أودري الخبيرة أنني أنظر وأدقق وأكاد أخترق بنظراتي التي كالرصاص حتى الجلد والعظام! ودَعَتني السيدة أودري

إلى البيت ولبَّيتُ؛ عملًا بالقول المأثور: إذا دُعِيتُم فاستجيبوا، ودخل علينا شحط جبلي سلم وجلس والست أودري لا تكف عن الكلام المكشوف، وبعد ساعة من الهزار قدَّمَتني للشحط الجبلي، وقدَّمَت الشحط البلدي للعبد الغلبان. ووقع قلبي في رُكَبي. فالشحط إياه جوز الست أودري وسَبعها المغوار. وهتفْت في أعماقي: يا خفيَّ الألطاف نجِّنا مما نخاف. فلو أن هذا الشحط البلدي إياه لهفني زغدة ولو على سبيل الهزار فحتمًا سيكون قبري هناك! والست أودري الله يخيبها لم تسكُت ولم تكُف عن الكلام إياه، العكس هو الذي حدث، تمادت وتبجحَت، والبنت والحق أقول مثقفة من منبع خاص. عندها مكتبة صحيح، وفيها كتب صحيح، ولكنها كلها من مدرسة: رجوع الشيخ إلى صِباه، وكتُب الثقافة الرفيعة قوي من صنف جيمس بوند وأجاثا كريستي، وكل حكاياتها تدور وتلف حول بريسلي والخنافس، وهي دائمًا تستشهد بلندن، ولندن يرد ذكرها على لسانها بسرعة مائة مرة في الدقيقة. الجو هنا فظيع، ولكن ... أوه ... ما أجمل جو لندن، وأنا آسفة لأن الشاي ليس جيدًا كما ترى، كم أتوق إلى رشفة شاي في أحد مقاهي شلسي، وهذه الكراسي غير مريحة ... كم هي مريحة كراسي لندن ... وليلة أعتم من ليالي الحرب هي التي سهرت فيها مع أودري. متكلفة ولا كبة يزيد، متعجرفة ولا تركي فلسان، كذابة ولا راديو إسرائيل، طماعة ولا يهودي في البندقية.

وألقيْت نظرةً على الحاضرين فإذا بهم جميعًا قرفانين آخر القرف، وأغلبهم نام واستراح. فلما رأيت النوم في الناس فاشيًا، تناومْت حتى قيل إني نائم، وعندما استأذنْت في الخروج، وأسرعَت تلهث ورائي ببلوزتها المكشوفة وبنطلونها المحزق ... وكتمْت في صدري ضحكةً؛ فقد كانت شديدة الشبه بالبنات اللواتي يأكلْن نارًا في شوارع القاهرة. ولو ربنا رزقني بواحدة من نوع أودري لسرحْت بها في الشوارع أنا ألعب الهيلاهوب وهي تأكل نارًا وسنجمع عندئذٍ ثروةً لا بأس بها. لو نطوف الحواري أنا والست أودري بمنظرها وبنطلونها ندعو العيال إلى الفرجة على فيلم طَعنة في الظلام، تأليف وتخريج وتفريج عمر عبد العزيز فلا بد أننا سنتعشى وننام حامدين شاكرين الله! الست أودري كانت تلهث ورائي لغرض، ولم يكن الغرض غير شريف لا سمح الله، ولكن لغرض شريف خالص، سألَتني الست أودري: هل أجد معك عملة صعبة؟ قلت: والحمد لله ... ولا سهلة! ... وفشخَت بقها فبدَت كسحلية تضحك، وقالت: مش معقول، سائح مثلك ليس معه نقود! قلت لها: سيدتي، أنا لست سائحًا ... أنا واقع وحكايتي تشيب الطفل الرضيع. قالت: إحكيلي أرجوك، أنا أهوى الحكايات الغريبة، عادة تعلمتُها منذ كنت في لندن. أنت لا تعرف

كم أنا أعشق لندن، عندما رأيت لندن أول مرة أحسسْت أنني أعرفها من قبل، راودني اعتقادٌ بأنني وُلِدْت فيها من قبل ثم متُّ، ثم بُعِثْت بعد ذلك في أفريكيا. صدقني ... أنا أكره أفريكيا، ولكن عزائي الوحيد أنني أعيش على أمل أن نهاجر من هنا إلى لندن في يوم قريب!

الست أودري الناشفة الحاشفة نموذجٌ مضحك ستجده كثيرًا في أفريكيا، حيث كانت السيادة والقيادة يومًا ما للرجل الأبيض الملظلظ كما الفطير. كان القانون السائد أن الرجل الأفريكي لا يصلح للحكم، الرجل الأفريكي للشغل والأبيض للإدارة والإمارة والسلطان العظيم، وناس ياما صدقوا أسطورة الرجل الأبيض، ويوم الاستقلال ياما فقدَ ناسٌ عقولهم. هل هذا صحيح؟ هل انتهت دولة الرجل الأبيض؟ ولكنهم عاشوا على أمل أن كل شيء سينهار وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه ... فلما مضَت سنوات وسنوات وكل شيء ينمو ويزداد في الاتجاه الجديد، انهار هؤلاء تمامًا. بعضهم انتحر، وبعضهم انهطل في عقله فصار مثل أودري المفقعة المبقعة ... لا تملك إلا أن تهذي بكلام فارغ كثير.

ولأننا في أفريكيا، ولأن الصراع لا يزال على ودنه بين القديم والجديد، والحرب شغَّالة بين التحفُّظ والتحرُّر فسنجد على سطح الحياة نماذج حقيرة ونماذج عظيمة ... نماذج حقيرة تركها الخواجات، نتاج سنوات الذل الطويلة، ونماذج عظيمة دفع بها الشعب على السطوح، نتاج سنوات الثورة العامرة بالكفاح. ويا صلاة الزين على النماذج التي سنعرضها عليكم بإذن واحد أحد قهار.

الفنان والعبيط والشيخ علي في أفريكيا

سيكون كل شيء على ما يُرام بإذن الله، فنحن على شاطئ أفريكيا، والدار أمان، ونحن أفريكان على أية حال، أجدادنا كانوا هنا، وبعض الناس الذين سنلقاهم في الطريق، كانوا عندنا، العسكري الأفريكي أصاري، وسي محمد، ولا أعرف له اسمًا آخر، ولكنه أفريكي يعيش في شُبرا، وخرِّيج الكلية الحربية في مصر، ومتزوج مصرية تعيش معه على شاطئ وينيبا، وفي حديقة دارها الآن تجارب على زراعة الملوخية.

وفي بيت سي محمد تشرب شاي آخِر آلسطة وتأكل لمون مخلل بعصفر آخر مزاج، وعيش مشقق مفقع ملدن — بتشديد الدال — ويسألك سي محمد عن دوران شبرا وقهوة جنة شبرا ومخزن الترماي، والراجل بتاع لحمة الراس الذي في عابدين، ثم يطلب منك في النهاية سيجارة بلمونت بفلة. السيجارة البلمونت كأنها ماء النيل، من يشربها مرةً لا بد أن يطلبها مرة أخرى!

وسي محمد مصري المزاج والغرام والقعدة، ويا حلاوة على المصري النزيه، ليس له مثيل على ظهر الكرة الأرضية، والنزاهة في قاموس أولاد البلد لها معنًى آخر غير الذي في قاموس الفيروزبادي.

يقول أولاد البلد الطيبين الحدقين ألاجة: فلان نزيه في أكله ... ونزيه في لبسه، ونزيه في عيشته، النزاهة هنا تعني مستوى. فإذا كنت حضرتك نزيه في أكلك فمعنى هذا أن مأكولك في الفراخ والحمام والطواجن على كل لون.

والمصري الأصيل إذا كان نزيهًا بهذا المعنى افترى.

المصري الأصيل بطبعه يحب الحياة، فإذا راقَت دماغه أصبحت الحياة لعبته.

أقسم لكم بديني إنني تعرفْت في أفريكيا على واحد اسمه الشيخ مهدي، الناس هناك يطلقون عليه الشيخ نمرة، وهو مثل سي محمد، واحد من هذا الصنف النزيه الذي حدثتُكم

عليه. القميص الحرير يهفهف، والبنطلون صيفي ومظبوط فشر تفصيل إيطاليا، والراجل نفسُه سمين ومرتاح ولذائذي ودائمًا نائم على روحه. ولأنه لذائذي فهو ينام النهار بطوله ويسهر الليل كله، وهو مزاجاتلي له في كل مجالٍ باع. وهو في أي مجال وردة، وهو ممسوس لأنه عاش في مصر عشرين عامًا طويلة. عاشها في سيدي عبد الدايم في عابدين، وكان الشيخ علي محمود هو مثله الأعلى والأسمى، وعاش الشيخ مهدي حياته كلها يسرح خلف الشيخ علي ويسحبه آخر الليل إلى بيته. وفي البداية راح يُقلِّد طريقته في التلاوة وطريقته في الإنشاد، ثم راح يقلد حركاته وإشاراته، وحتى الكحَّة اللعينة التي كانت تلازمه في أخريات أيامه، أصابت عدواها عمَّنا الشيخ مهدي. السعال يخرج من صدر الشيخ مهدي بنفس الطريقة التي كان يخرج بها من صدر الشيخ علي محمود، رغم أن الشيخ علي محمود كان مريضًا وهو في السبعين … والشيخ مهدي لا يزال في الخمسين من عمره.

وعاش الشيخ مهدي في مصر يدخن … ويشرب زوتوس وله ألف صديق، وله في كل ليلة قعدة، وفي تلك القعدات كان الشيخ مهدي يُعيد ليالي الشيخ علي محمود إذا أغمضتَ عينيك وسمعتَه خُيِّل إليك أنك تسمع الشيخ علي الله يرحم أيامه.

والشيخ علي محمود لم يكن مقرئًا فقط، كان مقرئًا وفنانًا وموسيقيًّا، ومحمد عبد الوهاب تعلم الكثير من أسرار الصنعة على يديه، والشيخ زكريا أحمد كان واحدًا من بطانته، وعشرات من أهل الفن والمزيكة شربوا من نبع الشيخ علي، وارتووا من بحره.

ولكن الفنان الناصح ابن الناصحة هو الذي يتأثر بأستاذه بقدر، والفنان العبيط هو الذي يتأثر بأستاذه إلى درجة القتل، يظل متأثرًا بأستاذه حتى يموت. ويعيش حياته كلها في ظله، يتحرك في دائرته، ويتكلم بطريقته، ثم ينتهي آخر الأمر إلى مجرد شبح يتحرك خلف الأستاذ العظيم.

الشيخ مهدي فنان من النوع الأخير، فنان وعبيط، ذاب كله في الشيخ علي وضاع فيه، فلما مات الشيخ علي أصبح الشيخ مهدي مجرد بصمة لأستاذه، الحديث كله عن الشيخ على، والكلام كله حول الشيخ علي، والشيخ علي الميت يحكم الشيخ مهدي الحي ويُوجِّه خطواته، ويا ميت نجف على الليالي الحلوة التي سهرناها مع الشيخ مهدي على شاطئ النهر في أفريكيا نسمع تواشيح الشيخ علي، وتقاسيم الشيخ علي، ونوادر الشيخ علي. والنهر كله تماسيح تتلعبط، ووحوش تتلمظ، والشيخ مهدي غائب عن النهر وعن التماسيح وعن الوحوش وعن الوجود كله، سيرة الشيخ علي عنده ولا سيرة الحب عند سمِّيعة أم كلثوم!

أنا أحببْت الشيخ مهدي وعشقتُه، والرجل لا ينسى الشيخ علي؛ لأنه لا ينسى مصر، ويدفع نصف عمره ويعود شهرًا إلى مراتع الصِّبا في سيدي عبد الدايم، ومعروف، وشارع

كلوت بك، وعشش الترجمان! وهو يكون أكثر الناس سعادة كلما وجد واحد مصري سمِّيع مثل حالي ونزل فيه كلام وغناء حتى يدركه الصباح. وهو إذا انسجم قوي، وانشكع قوي، يبكي كطفل. وأحيانًا من شدة اللذة يلطم على خدَّيه. وأحيانًا ينهض واقفًا فجأةً يصرخ كأنه ضبعٌ لئيم في الغابة. شعرت خلال الأيام التي قضيتُها معه أن الأرض ضاعت من تحت رجليه، وأنه هو نفسه ضايع يلف حول نفسه، حتى الهواء الذي يشمه غريب على رئتيه، فقد تعود أن يتنفس من تراب وغبار المقطم!

وبكيْت وأنا أودِّعه. الرجل الأفريكي الطيب عم مهدي الذي كل أصدقائه الآن عابرو سكة وأبناء سبيل، والذي ما تكاد علاقته تبدأ بهؤلاء الأصدقاء حتى تنتهي. والذي ما يكاد يهدأ نفسًا حتى يهب مذعورًا يبحث عن صديق أو على الأقل يبحث عن رجل يَقبَل أن يُعيره أُذُنًا!

وعن طريق الشيخ مهدي تعرفْت إلى رجلٍ خواجا غريب الشكل والمنظر. خواجا مقدد مكرمش كأنه سلحفة في حديقة الحيوان. سيقان تُطِلُّ من البنطلون الشورت كأنها أصابع رجُلٍ مريضٍ بسُلِّ العظام. مرهوق وأصفر رغم أنه من بلاد البيض الأمارة. محنيُّ الظهر كأنه يبحث عن شيءٍ فقدَه على أرض أفريكيا. سكران طول النهار يقربع في بيرة، وطول الليل غرقان لشوشته في الكونياك، لا يكاد يفيق لحظة. ربما لأنه يريد أن ينسى، فلقد كان الرجل سيِّدًا يومًا ما، وكان عظيمًا وكبيرًا وصاحب مال وإقطاعيًّا صاحب عزوة! وكانت له مواهب شتَّى، وكانت أبرز مواهبه أنه رجل أبيض.

وعندما عادت أفريكيا إلى أهلها وأصبحَت مصائرها في أيدي أبنائها، أصاب الذهول الرجل الأبيض المكرمش، وانقلبَت الست زوجته ميتةً من الخضة، وهاجرَت إحدى بناته مع رجلٍ أبيض ملظلظ إلى بلاد برة، وسرحت البنت التانية على روديسيا، وبقي الرجل الأبيض مكانه، يشرب لينسى، وهو ليس له أصدقاء، فكلهم ماتوا من زمان. صايع ليس له مهنة، ضايع ليس له سلطة، مجرد حطام شهرته تدوي كالرعد ولكن في البارات والحانات والملاهي الليلية وعندما تغلق كل هذه الأماكن أبوابها تستطيع أن تلقاه على أي رصيف، فهو من جماعة المراصفة، أبناء الرصيف! وعلى أي رصيف يجلس الخواجا الغلبان حتى الصباح يعب من زجاجةٍ تحت رجليه ويغفو؛ فالحياة لم تعد تُطاق في أفريكيا لهذا الصنف من البيض. وهو لا يستطيع أن يُقاوِم ولا يجرؤ على الحركة، وكل ما يستطيعه هو أن يدمر نفسه، وأشهد أنه نجح في مهمته خير نجاح!

خواجا آخر تعرفْت عليه عن طريق الشيخ مهدي، خواجا ومعه بندقية، فهو صياد كان يأتي في الأيام الخوالي إلى أفريكيا في رحلة صيد، وكان يأتي لورد ابن لوردية، الدولارات

معه بالكوم، والجنيهات الإسترليني معه بالويبة، والبنادق معه جاهزة، والأصدقاء على قفا من يشيل. وكان يستأجر بِغالًا ويستأجر رجالًا، ويدخل الغابة يصطاد. ويغيب داخل الغابة شهرًا وشهرين وثلاثة شهور، ويعود ومعه صيد يذهب به إلى بلاده يعلقه على جدران البيت، يتفرج عليه الضيوف، ويتفرج عليه العيال، ثم تمضي عدة سنوات قبل أن يأخذ عزاله ويأخذ فلوسه ويعود إلى أفريكيا. ولكن الحياة تدهورَت بالخواجا الصياد، وراح هو الآخر يتدحرج حتى وصل إلى الحديدة. لم يعد معه فلوس ولا شيكات سياحية. حتى البنادق باعها في السوق، ولكن الغابة كانت تملأ عليه خياله، والصيد يسري في دمه، وسرعان ما هجر أوروبا كلها وطار إلى أفريكيا يصطاد منها ويسترزق! وهو الآن دليلٌ محترِف، يذهب مع البِيض المتريشين داخل الغابة، يدلهم على الطريق، ويصطاد معهم، ويخرج من المولد بحسنة. وأحيانًا يفتحها الله عليه فيصطاد صيدًا سمينًا لحسابه. ويكون معه جماعة متريشين، فيهبر من الصيد ويهبر من الجماعة ويكرمه المولى الذي لا ينسى عبيده حتى ولو كانوا من البيض!

والصيد كما فهمْت من الخواجا، ليس بندقية وغابة وشوية وحوش وهات يا ضرب نار ع الفاضي وع المليان!

الصيد حياة وتجارة وتنظيم قبل كل شيء!

وأنت لكي تصطاد «فيل» مثلًا تحتاج إلى خمسين ألف جنيه. ستأخذ معك عشرة رجال أفريكان. ومئونةً تكفيهم، وستأخذ معك بنادق وذخيرة تكفي لشهر من الزمان. وستدخل الغابة وأنت وحظك؛ لأن الحيوان الذي اسمه الفيل، ليس كالسجاير التي اسمها الفيل؛ إذا طلبتها من عند الدخاخني ناولك العلبة على طول. أما الحيوان الفيل فيحتاج إلى صبر ولا صبر عمِّنا أيوب؛ لأن الحيوان الفيل ليس موجودًا على الدوام. قد تصادفه وقد لا تعثر عليه! وإذا عثرتَ عليه فلا بد من خطة لكي تحصره في مكان، بحيث تضمن حياتك إذا أطلقت عليه النار وخابت الطلقة؛ لأنه يا ويلك من الفيل إذا أطلقتَ عليه البارود ثم عاش. الغابة ستصبح سداح مداح تحت رجليه. وكل قدم وقدم ولا جذع شجرة جميز. وهو ملك الغابة بلا منازع. صحيح أن اللقب للأسد، ولكن مَن الذي خلعه عليه؟ ليست الحيوانات قطعًا هي التي فعلَت هذا، ولكنه البني آدم الذي يريد أن ينظِّم الكون كله على هواه. ويوزِّع المناصب والألقاب حتى في عالم الحيوان. ولكن أصغر ثعلب في الغابة لا يصدق هذا الافتراء الذي من صُنع البني آدم، فأي ثعلب في الغابة يعلم تمام العلم أن الفيل هو الملك المُهاب وليس الأسد الكسلان الجربان العواطلي الذي ينام طول الليل، ويتثاءب

طول النهار! وزئير الأسد المرعب المخيف لا يخيف أحدًا إلا الإنسان، وهذا الزئير في حقيقته ليس إلا تثاؤب الأسد الوخمان. ولكن الفيل إذا اتغاظ فيا داهية دُقِّي على الصياد وعلى أي واحد معاه! والنشان لازم يكون مضبوط وخمسة وعشرين قيراطًا، والرصاصة في جلد الفيل لا تؤثِّر عليه، وربما ترتدُّ وتصيب الصياد، الضرب لا بد أن يكون في المليان. ومليان الفيل في الأذُن، وفي الفم المفتوح، وتحت الذيل، وفي العين، فإن خابت فأمك — ولا مؤخذة — داعية عليك.

الخواجا بتلر الصياد عندما دخل الغابة أول مرة كان شابًّا ومعجبانيًّا وقويًّا ومفتري آخر افترا وحاسس بنفْسه ... ويا أرض ما عليكي إلا العبد لله!

وتصور الخواجا بتلر في الغابة وهو على هذا النحو من السذاجة والهيافة، وشاهَد فيلًا يرعى في أمان الله، وعمَّر البندقية ونشن واندبَّت الرصاصة في جلد الفيل. وهاج الفيل ورمح نحو الخواجا، واقتلع في طريقه كل الأشجار، ورمح كل الناس الأفريكان الذين كانوا مع الخواجا؛ لأنهم مدرَّبون يعلمون كيف يكون الحال إذا هاج عمنا الفيل. وهو نادرًا ما يهيج، ولكن آه من هوجة الطيب الصبور!

واحتاس أخونا بتلر ورمَح بأقصى سرعة، تاه في الغابة أيامًا حتى وجدوه مغمى عليه يكاد النمل أن يحمله إلى بيته! وتوبة من دي النوبة، ورأس أخونا بتلر وألف جزمة قديمة لا يهوب نحو الفيل حتى ولا في حديقة الحيوان! وعدت سنوات بعد ذلك وأخونا بتلر لا يصطاد إلا الحمام واليمام والغراب النوحي الوديع! ولكنه بعد ذلك تعلم وتدرب واستطاع في النهاية أن يصطاد الفيل. وباع عاج الفيل بالشيء الفلاني، وباع لحمه بألف أهيف. والناس في الغابة يأكلون لحم الفيل، والخواجا بتلر أكل منه هو الآخر، ويقسم بكل كتاب أن لحمه ألذ من لحم الثور! والأسد المرعب المخيف يلقاك في الغابة فيهز ذيله ويهز عنقفته ويجلس بالساعات أمامك لا يهش ولا ينش، مسكين عمنا الأسد نظره على قده، لولا العيب لسار في الغابة يتوكأ على عكاز. ولو حيوان حدق فتح محل نظارات طبية في الغابة لكان عمنا الأسد هو أحسن زبون لديه! والنمر لا يهاجم الإنسان إلا إذا فقد عقله. في عالم الحيوان أيضًا ناس عقلاء، والعقل زينة، وناس آخر جِنان!

والحيوان المجنون معذور، يأكل ولا يشعر بشبع، ويفتك بالإنسان لمجرد أنه شيء يتحرك. ويهاجم كل من يلقاه حتى الفيل! مع أنه لو كان يتمتع بعقله لأفسح الطريق للفيل وضرَب تعظيم سلام!

والحيوان المجنون ليس خطرًا على ابن آدم وحده، ولكنه خطر حتى على الحيوان. ولذلك تهبُّ كل الغابة ضده. وكل من يلقاه يهبشه ويلطشه حتى يجيب أجله!

وفيما عدا الحيوان المجنون أنت تستطيع أن تعيش في الغابة عدة أعوام بلا بندقية، نام وأنت مرتاح الضمير في الغابة، واحذر فقط الزواحف والضبع. الثعبان معذور؛ لأنه مذعور، كل حركاته وإشاراته تؤكد أنه خواف خوف الإبل، مذعور ذُعر أبو فصاد. وهو يتمشى افرنجي في الغابة يلدغ كل من يلقاه ويموت في النهاية بسبب ذعره. والضبع جبان وحقير ومن أصل واطي، وابن ناس غير طيبين وغير كويسين، وتربية جحور وسخة وغابات قرعة. ولذلك فهو لا يأكل إلا واحدًا نائمًا ومتسلطن، أو جيفة تركها على طريقٍ حيوانٌ غندور ابن ناس طيبين! بعد الضبع والثعبان، الغابة أمان مثل بيت حضرتكم. تستطيع أن تنام فيها وتتغندر، تستطيع أن تضرب فيها بلطة وأنت آخر رواقة وآخر مزاج.

والخواجا بتلر يعرف الغابة كما يعرف بيتهم، وعن أسرار الغابة يستطيع أن يؤلف عشرة كتب وعشرة أفلام! وهو من شدة هيامه وغرامه يعيش في الغابة ومتزوج منها. ست أفريكاني حلوة كما وحيد القرن، قوية وعنيفة وغبية أيضًا؛ لأنها تحب الراجل الخواجا وتسأل عليه كلما خرج للصيد في الغابة، تخشى عليه الفتنة من مرات الأسد وأنثى الغزال!

السيدة الأفريكية مرات الراجل الخواجا سيدةٌ من باب المجامَلة، وهي خير شاهد على نظرية التطور، كانت بني آدم في الماضي وأصبحَت حيوانًا، وستصبح شيئًا آخر إذا امتد بها العمر في قادم الأزمان!

والخواجا الصياد تزوجها بعد أن تدمرَت حياته وأفلسَت خزائنه وهربَت مراته مع خواجا آخر بنكير يقضي الليل على موائد القمار، ويقضي النهار في بارات لندن الأنيقة! تزوجها لأنه لم يكن أمامه سوى طريقتين إما أن ينتحر وإما أن يتزوج الست إياها. ولما كانت بلوته تقيلة، ومصيبته شديدة فقد آثر أن يتزوج الست إياها؛ لكي يتعذب ويتحرق على نار جهنم! ومع ذلك ... ما أغرب الحياة. بعد شهورٍ تعوَّد الرجل الخواجا على المرأة الغلبانة وتبعها كأنه صياد وهي فريسة ... أصبحَت المرأة إياها هي كل حياته وكل دنياه. صدِّقني أنا لم أكتشف نفسي، ولم أعرف نفسي إلا بعد أن ضمَّني معها كوخ واحد. نحن في الحياة لا نعرف ما هو الأحسن وما هو الأسوأ إلا بعد فوات الأوان، هكذا صاح الراجل الصياد الغلبان الذي آثر المبيت في الغابة فرارًا من مدينة لندن ... لندن أكثر وحشةً من الغابة وأكثر وحشية ... الناس هناك تأكل بعضها بدون مناسبة، والحيوانات هنا لا يأكل بعضها بعضًا إذا شبعَت! وأنت تستطيع أن تنام في الغابة آمنًا ومطمئنًّا إلا من الضبع والثعبان، والناس هناك كلهم ضباع وثعابين إذا أغمضتَ عينيك لحظةً أكلوك أكل عزيزٍ مُقتدِر ... ويا قوة الله على الست مراته، لا تعي شيئًا ولا تدرك شيئًا، ومعها مقشة ليست للغابة ولكن للحيوان الغادر الكاسر الذي هو جوزها.

وعندما نادت عليه نهض يجري كأنه مسجونٌ لحظة التمام، والست إياها كأنها مأمور الليمان واقف على البعد يتفرج!

والله على الخواجا، عندما استدار نحو الغابة واختفى داخلها والست بالمقشة تتبعه كظلِّه، صعب عليَّ، ولكن صعبت عليَّ نفسي أكثر، فقد كان العبد لله في طريقه إلى الغابة الأكثر وحشة وأكثر وحشية ... كنت في طريقي إلى أوروبا. ولكن قبل ذلك ما أحلى القعدات والسهرات التي شهدناها في أفريكيا.

يا جيش النمل ... مليون سلامة

سنظل نتمشكح على شاطئ أفريكيا وبالشبشب زنوبة والجلباب، وقدَم في المية، وقدَم في الرمال، وعرقنا مرقنا، وأنظارنا على الأرض نتفرج على ألف صنف من الزواحف والحشرات، وفراشات في الجو ما أحلاها وما أغباها، أشكال على ألوان، أحمر وأصفر وأخضر وأبيض وأسود، فراشة حلوة ومثل كل حلوة غبية، في النار تلقَّح جتتها، في نسيج العنكبوت تعلك نفسها، في شباك الخنفسة تقع وقعة مهببة ... وخنافس أفريكيا كخنافس لندن، خنافس قوية وعنيفة ومجعلصة! كل خنفسة وخنفس كالوطواط، بليدة لا تتحرك، ماكرة لا تتكلم، منبوذة تحفر لنفسها في الرمل، تتحفز وتتربص، لدعتها وقرافة الإمام الليثي، فإن كنت محظوظًا فقرافة البساتين! وسحالي مثل التماسيح لطيفة لا تعض ولا تلدع، غلبانة تلف طول النهار بحثًا عن لقمة وعن حتة سكر! جميلة تصلح للزينة وتصلح للعيال! ولكن هوليوود النصابة ربحَت على قفا السحلية عدة ملايين من الجنيهات؛ أنتجت فيلمًا اسمه ليل الإجوانا، والسحلية بالإنجليزي اسمها الإجوانا، وأنا أخشى الآن أن يعجب الاسم واحد من إياهم فيفتح محلًّا في شارع الهرم اسمه ملهى الإجوانا؛ لأن أسماء الأعاجم تخطف عقول الناس، وتخطف أبصارهم، حتى إن واحد أفندي منهم فتَح سينما وسمَّاها سينما الهمبرا، وهي كلمة عربية معناها الحمراء، ولكنها أعجبَت أخونا الأفندي فهبر الاسم الإسباني باعتباره أشيك وأحسن؛ لأنه من بلاد الخواجات. المهم أن هوليوود النصابة اخترعَت قصة السحلية، متوحشةً زعموا، وجبارةً افترضوا، ومفترسةً صوروا، وتهبر لحوم الناس سنيروا ... يعني عملوا سيناريو! وفيلم كامل متكامل عن السحلية وليل السحلية، وكسبوا مكاسب ولا الرمالي بتاع العيش أيام الحرب العالمية!

ولكن أعجب شيء وأغرب شيء على شاطئ أفريكيا هو بيت النمل. كل بيت في حجم صخرة من صخور الهرم الأكبر، بيوتٌ شامخة وأنوفها عالية، عوالم ساحرة وسحرية، وكل

ما فيها غامض وسري، حتى البناء نفسه سرٌّ لا يعرف سره إلا مهندس النملة! وأعاصير أفريكيا العاتية تقتلع الأشجار، تنفخ البيوت، إلا بيت النمل. وأمطار أفريكيا السيارة تعدم الشجر، تهدم القرى، إلا بيوت النمل! والبيوت من شوية رمل ومادة لزجة أمتن من الأسمنت وأصلب من الحجر الصوان. والنمل نفسه أبيض وطويل ورشيق ونشيط وشغال، وعلى ودنه! مجتمَع النمل في أرقى درجة من التنظيم والعدل. طوابير رايحة جاية، وفي خطوط مرسومة وكأنها أتوبيسات مؤسسة النقل، وكل نملة شايلة شيء، فرع شجرة، ضفدعة ميتة، حتة لحمة، حتة دبشة، ريشة عصفور، بذرة منجة، المهم لا يُوجَد عواطلي ولا واحد كسلان! الشغل على ودنه، والنشاط على ودنه، لا خناقة ولا حادثة، ولا واحد فاتح جعُّورته، ولا واحد ماسك شكوى وداير يلف على النمل الشغال. لا بد للنمل لغة وموسيقى وحياة داخل القلعة المنيعة! عمنا الإنسان المغرور ولا غرور أبو فصاد يخترع أدوات وآلات لاكتشاف القمر والمريخ، ولو أحسَن لاخترع آلات لاكتشاف النمل! وآه من النمل الشغال لو وقعْت في رجليه … باعتبار أن النمل ليس له أيدي ولن تقع إلا إذا وقعْت في حالة ضعف، عندئذٍ سيتولى النمل الإجهاز عليك … وأي حيوان في الغابة يسقط جريحًا يعاني سكرات الموت بعد معركة رهيبة، سيخرج له النمل ويشطب عليه. حتى الفيل العظيم سينتهي بعد ساعة زمان ولن يبقى منه إلا عظمه، والنمل فيما يبدو كان آدم بتاعه جزار … وله طريقته في التقطيع والتفصيص والسلخ فشر بشكار في المدبح! ولو كتفْت أسد هايج على شجرة وغرقْته عسل نحل لأكله النمل في ربع ساعة، العسل والأسد أيضًا … بطنها مفتوحة، وبقُّها مفتوح، وخشب تأكل … سكر تأكل … لحم تأكل … وأي شيء وكل شيء تأكل، فلا يمري عليها ولا يظهر! تتحول المأكولات إلى أعصاب وعضلات وفيتامينات؛ ولذلك فالنمل هو أكثر المأكولات في العالم فائدةً لمن يأكل! وبعض القبائل في أفريكيا تشوي النمل على النار، وتأكله بالهنا والشفا! والعيال تحشو به جيوبها وتقزقزه ساعة العصاري على ضفاف الأنهار!

وشاطئ أفريكيا كله مزدحم ببيوت النمل. بين كل بيت نمل وبيت نمل ستجد بيت نملٍ ثالث. وملايين تسكن البيت الواحد، ولولا حكمة الواحد القهار لسيطر النمل على العالم. وحكمة الواحد القهار أيضًا أن البني آدم يستفيد من النمل ويتعلم، القائد أفونتي راجل تمام، ومن قادة حرب التحرير في أفريكيا! كان عسكري جيش إنجليزي أيام الحرب … خطفوه من ساحل غانا ورحَّلوه إلى الشرق الأوسط، وتكررَت له نفْس القصة التي حدثَت مع كل العساكر الأفريكان … عبَر البحر إلى أوروبا، وخاض في الدم حتى اخترق أطلال برلين، وداس على حُطام دار المستشارية! ثم رحل إلى الشرق الأقصى ليحارب ضد اليابان،

وتاه مرةً في أدغال بورما، وعاد إلى الحياة بمعجزة. اكتشف فجأةً أنه في مستنقعٍ يغوص فيه حتى المصارين، وبعد قتالٍ عنيف ضد الطبيعة استطاع أن يخرج من المستنقع الذي كان فيه! ولكن ليكتشف شيئًا آخر! إن الغلبان السيئ الحظ أفونتي في منطقة مستنقعاتٍ تمتد مائة ميل، وربما أكثر سجنٍ كبير قضبانه من الماء الآسن، وجُدرانه من الحشرات والتماسيح، ولو نجا أفونتي من الماء سيلهفه تمساح، ولو نجا من التماسيح ستلدغه عقربة، ولو نجا من العقربة ستهبره ناموسة في نافوخه وينتهي الأجل المحتوم، وآثر أفونتي العاقل أن يموت مكانه، وتجري جري الوحوش وغير عمرك ما تحوش، وأعمارنا بيد السماء يا نهر البنفسج، على رأي زكريا الحجاوي، أو يا مستنقعات البنفسج، لسان حال أفونتي الغلبان! وعشرة أيام وعمنا أفونتي وحده في بحر المستنقعات، رشاش يطقطق منه في الليل كام رصاصة لتفر التماسيح من حوله! ولكنه استيقظ ذات صباح ليجد أنه وارمٌ كالفقمة، وشه أزرق محبب كأنه باذنجان مخلل معصور عليه لمون! ورأسه توش كالباجور، وسخنة كالفرن، تستطيع أن تضع فوقها حلة وتطبخ عليها آخر طبيخ مسبك! وأدرك عمنا أفونتي أنه يموت، وأن تموت فقط فليس في الأمر شيء، ولكن أن تدرك أنك تموت فهنا المصيبة الكبرى! والإعدام صعب لهذا السبب؛ لأن المحكوم عليه يعلم قبل الموت بربع ساعة أنه سيموت. وعمنا أفونتي حالته أصعب؛ لأنه يعلم أنه سيموت، ولكن عذابه سيطول؛ لأن عمره قد يمتد أكثر من أسبوع! ونام عمنا أفونتي وتمدد، ومرة يستيقظ، ومرة يغفو، ودائمًا يخطرف ويخرف، وحالته أصبحت نيلة، ولو يقدر لشال مدفعه على كتفه وصرخ في الغابة، عَشا الغلابة عليكي يا مستنقعات، وحسنة قليلة تمنع بلاوي كتيرة يا تماسيح! ولكن الود لم يكن وده، والعين بصيرة والقوة قليلة، والموت بدأ يزحف ولكن ببطء. وعندما أبصر الضبع يحوم على البعد أدرك أن النهاية قربت؛ لأن الضبع الخسيس يشم رائحة الموت على بعد ألف ميل ... وأغفى عمنا أفونتي ولكن ليستيقظ فجأةً على صوتٍ كالرعد، وظن أنه مات منذ ملايين السنين، وأن القيامة قامت، وأنه مدعو للمثول بين يدي الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ولكنه اكتشف بعد لحظات أن الصوت أحدثته طيارة هليكوبتر أمريكاني سقطَت من الجو على المستنقع، وأربعة ضباط سقطوا معها، التهمَت التماسيح واحدًا منهم والثلاثة الباقون زحفوا حتى أصبحوا بجوار أفونتي المريض. ولأن الطيار أمريكاني والضباط أمريكاني، ولأن يا بخت من كان النقيب خاله، فقد اهتمَّت القيادة بالأمر، سماء بورما الملبَّدة بالغيوم انتشرت فيها الطيارات كالنمل، وفي العصر اكتشفوا مكان الطيار وحطَّت طيارةٌ أخرى هليكوبتر سليمة وعال العال ... وطارت

ومعها الضباط الثلاثة والغلبان أفونتي. ومن بورما إلى بلاده. فقد انتهت اليابان وانتهت الحرب.

ها هو أفونتي السعيد الحظ يعود إلى بلاده بعد ست سنوات قضاها في البراري والصحاري والمدن المخرَّبة على ضفة المحيط، وهو قد رأى الموت أكثر من مرة حتى ألِفه، وعاشر عزرائيل حتى صادَقَه، ودخل مصيبة وخرج من مصيبة حتى لكأن المصائب تحولَت إلى معالم على الطريق.

وها هو أفونتي السعيد الحظ يعود إلى بلاده بعد ست سنوات وقد أصبحَت التجربة عنده والخبرة لديه، وبأكثر من لسان يرطن، وبأكثر من وسيلة يفكر، ولقد أجاد الحرب المنظَّمة في أوروبا، وأجاد حرب العصابات في آسيا، ورأى بأم عينه عساكر الإنجليز تفر كالغربان في الصحراء، وتستسلم كالأبقار في أوروبا. لماذا إذن العسكري الإنجليزي شامخ الأنف في أفريكيا؟ رافع رأسه على الأفريكان؟ يتكلم من طرطوفة لسانه مع الزنوج! لماذا يتصرف ويتحرك هنا كأنه رسول، كأنه إله!

ووصل أفونتي إلى جواب على السؤال، العسكري الإنجليزي مسلَّح والأفريكي أعزل، وإن وجد السلاح لا يستطيع استخدامه. ولكن ها هو الوقت قد حان للانتقام من سنوات الذل والقهر، وأفريكيا تطفح بالألوف من الذين كانوا عساكر في الحرب، وكلهم مدرَّبون، وكلهم خبراء، وكلهم اللهم صلِّ ع النبي على استعدادٍ للبذل والفداء، ومن عشرة رجالٍ قام تنظيم أفونتي العظيم، فصيلة النمل، وبعد شهور ستصبح الفصيلة فصائل، وستتحول الفصائل إلى جيش ... وسيصبح الاسم المختار لجيش أفونتي ... جيش النمل، ومن هنا لا نبدأ كما خالد محمد خالد، ولكن من هنا نعود إلى حكاية النمل، فعلى شاطئ أفريكيا، حيث عاش أفونتي صباه، كان يجلس بالساعات يراقب جيش النمل وهو يتحرك، جحافل تخرج وجحافل تعود، سرايا تتحرك، وسرايا تراقب، وسرايا تهاجم، وسرايا تحمل الغنائم والأسلاب! كلٌّ يتحرك بخطة، وكلٌّ يتحرك بميعاد، والقيادة واحدة، والآراء نهائية، والطاعة واجبة، والأرزاق للمجموع.

وهكذا بدأ جيش النمل البشري يتحرك ضد الاستعمار في أفريقيا، وعندما انطلقَت الرصاصات الأولى جرَّب الإنجليز أن يطفئوا النار المشتعلة، ولكنهم فشلوا! وعندئذٍ استعانوا بجيش نيجيريا المستعمرة وقتئذٍ؛ ليقتل الأفريكي أفريكيًّا مثله، وليطبقوا مبدأ الأمريكان في آسيا؛ آسيوي ضد آسيوي، ولكن الأفريكان أفسدوا اللعبة عليهم، وفي أول صدام انضم الأفريكي النيجيري إلى الأفريكي الغاني ... وهات يا ضرب ويا عزق في الوحش الأبيض الذي

يمص دم الفريقين، واحتاس الإنجليز حوسة حشَّاش وقع في كبسة، ولم تنته الحوسة إلا بالجلاء. وهكذا بدأ أفونتي العظيم ولم يكن الأخير، في كل بلد في أفريكيا ظهر أفونتي آخر، ومن جيش الرجال البواسل الذين ضربوا الألمان في العلمين، وضربوهم في روما، وضربوهم في باريس، وضربوهم في برلين، من هؤلاء الرجال قام جيش تحرير أفريكيا؛ ليضرب هؤلاء الذين ضربوا أفريكيا ضربة العمر، وكسروا عمودها الفقري، وكتموا على أنفاسها ألوف السنين! وأفونتي لا يزال حيًّا يُرزَق، شابًّا لا يزال قويًّا، سيظل وجهه مستديرًا، وكتفه عريضًا، ورقبته مثل رقبة خضر التوني بتاع الحديد. كان يتكلم ببراءة، ويتكلم ببساطة، ويحكي ذكريات الكفاح المرير، وكأنه يروي قصة فيلمٍ شاهده، ويضحك أفونتي عميقًا كلما تذكَّر حرب العشرة أعوام، فعندما بدأ الصدام بين العسكري الأفريكي والعسكري الإنجليزي كان منظَر الأخير مضحكًا شديد الإضحاك. العسكري الإنجليزي خرع ممهمط كالتين البرشومي، مرهوق كورق أشجار الموز. الفراشة تُخيفه، والسحلية تجعل قلبه يطب في رجليه، وطابور من النمل يجعله يصرخ في الغابة كما طفل أمه تخيفه بالبعبع المكار!

ذات مساءٍ حاصر جماعةٌ من جنود الجوريلَّا الإنجليز في الغابة، وعساكر الجوريلَّا معجبانية آخر طراز، على المعاصم أساور جلد، وعلى البرانيط فروع شجر، وحول الخصور سكاكين مسنونة ومطاوي حامية، والجزم حداوي وفيها مسامير وبزوز ولا فريق ريال مدريد. ومع كل واحد سلاح أبيض، وسلاح أسود، ونظارات معظمة، وجهاز لاسلكي مفتوح على القيادة باستمرار. والاسم نفسه حاجة تخيل، وحاجة تخبل ... الجوريلَّا، ولا بد أن الجوريلَّا تقاتل بالأسنان والأظافر وبالأقدام وبالشناكل والمقصات! ولكن عمنا أفونتي كان يعلم أن الاسم لأمشير والفعل لطوبة، وكان يعلم أنهم لا جوريلَّا ولا أي حاجة، ولكنهم عساكر جرابوللي. وزحف عمنا أفونتي بعساكره في شكل حدوة حصان، ووقف طول الليل حول عساكر الجوريلَّا يصدر أصواتًا مُفزعة، مرةً كصوت الأسد، ومرةً كصوت الثعبان. ولكن عمنا أفونتي خابت آماله، فقد ظل عساكر الجوريلَّا في أماكنهم أكثر ثباتًا من الأول، فلا حركة ولا حتى همس. وعندما انبثق الصبح اكتشف عمنا أفونتي أن العساكر الجوريلَّا خلعوا خوذاتهم وملابسهم وأسلحتهم وعلقوها كما خيال المآتة وهربوا في الليل من شدة الخوف! وعلى بُعد ميلٍ واحد من هذا الديكور كله، كان خمسة عساكر إنجليز بالفانلة واللباس، مشتحين كالفسيخ، مشندلين كما السمك الميت، ولم يكن في جسم واحد منهم مطوة، ولم يتخدش واحد منهم بدبوس، ولم تخر من واحد منهم نقطة دم! ماتوا جميعًا بالسكتة اللهم احفظنا، مع أنهم جميعًا جوريلَّا، وجميعهم يا صلاة الزين شباب

كالورد! تجربة أفريكيا أن العساكر الخواجات المحتلين لا يخرجون بالمفاوضة ولا يرحلون بالمذكرات. وبدلًا من تبادُل الوثائق لا بد من تبادُل الطلقات، وبدلًا من ضرْب تعظيم سلام لا بد من ضرب الرصاص، وبالرصاص دخل العساكر الخواجات أفريكيا، وبالرصاص رحلوا!

رجل واحد من كل الرجال الأفريكان أبناء الحرب العالمية يترحم عليه أفونتي، ويقرأ على روحه السلام. الرجل من جنوب أفريكيا واسمه فوندا، عسكري تمام وصل في الحرب إلى أعلى رتبة وصل إليها أفريكي أسود خلال الحرب … صاجن ميجور … وبالبلدي مساعد، وبلغة والدي حضرة الصول. ولأنه أفريكي أسود وصول فقد كان المرحوم فوندا يحكم أورطة أكلَتها الحرب، ومات أغلبهم في معارك أوروبا، وآخرهم سقط شهيدًا وقلْب برلين على مرمى مدفعه، وعاد عمنا فوندا الكبير إلى جوهانز برج، وفي جوهانز برج السود ينكشون في الصحاري بالأظافر وبالأسنان بحثًا عن الذهب الأصفر الرنَّان، وخواجا سمين كالثور يلهف هذا الأصفر ويبيعه لتجار الجواهر في لندن ونيويورك وباريس! والأسود يأخذ حسنة ويعيش في كهف، والأبيض الملظلظ له يخت عند الشاطئ وغرفة محجوزة في الريفييرا، وخزائن سرية في جنيف، وقصور في الكيبتاون، ورحمة ربنا واسعة على الأبيض الملظلظ، وأضيق من عين الصرصار على الأسود أبو جلد محروق. وكان الصول فوندا واحدًا من هؤلاء الرجال في منجم ذهبٍ في صحاري جوهانز برج. وذات يوم أخذ عمال المنجم وكأنهم كانوا عساكر في الحرب واختفى داخل الصحراء. وبدأَت أول معركة تحريرٍ بالسلاح في جنوب أفريكيا، ولكن الرجل الأبيض عالج الموضوع بدهاءٍ وبخِسَّة … أقام ستارًا من الكتمان حول فوندا ورجاله، لا خبر يُنشَر ولا بلاغ حكومة يُذاع. ولما كانت الشركة في حاجة إلى دعاية، وفوندا محتاج إلى أن يصل عبر البحار إلى العالم البراني، فقد لجأ إلى صحافة الغرب؛ لتوفد رسولًا يخترق الصحاري ليكتب قصة الرجال المائة والحرب التحريرية. وعلمَت حكومة الرجل الأبيض بالأمر. وذات صباحٍ وصلَت إلى مقرِّ قيادة فوندا في الصحراء بنتٌ متحمسةٌ متكلِّمة، ومعها كاميرا وآلات تسجيل وكافة شيء، وبعد شهرٍ طويل مع فوندا ورجاله عادَت إلى كيبتاون، إلى إدارة الأمن العام في حكومة الرجل الأبيض، البنت الشيطانة المتحركة لم تكن صحفيةً، ولكنها كانت مستوظفة في مكتب الأمن التابع للرجل الأبيض. وكان سهلًا بعد ذلك أن تُباد حركة فوندا. المواقع معروفة، ونوع السلاح معروف، وعدد الرجال معروف، وكل شيء، وأي شيء كان مكشوفًا، وعلى عينك يا مُخبر، وحلَّقَت الطائرات عشرات المرات على مواقع فوندا ومسحَتهم جميعًا. لو عاش فوندا فلربما

تغيَّر مصير جنوب أفريكيا. أغرب شيء أن صحافة الغرب التزمَت الصمت فلم تنشر حرفًا واحدًا، لا عن حركة فوندا ولا عن مصيرها، والكتلة الثالثة لم تكن قد ظهرت، وحكومة العالم أغلبها وقتئذٍ طبيخ في طبيخ، وشيلني وأنا أشيلك، لم يظهر فوندا المسكين في الوقت المناسب، ولكنه جاء مُتقدِّمًا بعض الوقت، غير أن موته لم يكن عبثًا. فلم يلبث أن ظهر بعد فوندا عشرات ومئات وألوف وملايين كلهم فوندا ... والله يرحم فوندا ويحسن إليه...

دخانيق ... وسراديب ... وبؤر

ستنفتح الآن أبواب الصياعة أمام العبد لله، وسندخل حواري كحواري سيدنا الحسين. مبلطة كضمير الخائن، ضيقة كعقل الأحمق، ساحرة كما الحواديت في ألف ليلة وليلة، وسنجلس مع الأفريكان على المصاطب، وسنشرب شايًا أفريكيًّا، وإن شئتَ الدقَّة سنلهط شايًا أفريكيًّا؛ لأن الأفريكان لا يحبون الشاي ... ظاهرةٌ غريبة وذات دلالاتٍ عميقة، المستعمِر الأبيض كان يحب الشاي؛ ولذلك كرهه الأفريكان، والشاي الذي نشربه هنا لن تجده إلا في الفنادق الكبرى، أما شاي الأفريكان فشايٌ غريب، شاي في سلاطين، وكما البلوظة تخين، وكما اللبن الزبادي ممهمط، وكما شربة الزيت ماسخ ولعين، وسنأكل مع الأفريكان فول سوداني معمول بطريقة حلوة فشر الفول السوداني في بار جروبي، وسنلعب معهم سيجة، ولكن ليس على الأرض وبكلاب من الطوب كما هو الحال في بلدنا، ولكن على خشبة كخشبة الطاولة، وبكلاب من خشب الجوز، وسنقزقز معهم ذرة مسلوقة وموز مشوي، فإذا انجلَت القعدة وحليت سنشرب معهم كونياك فشر مية النار، وويسكي يكوي ويشمط ولا لهاليب جهنم، وسندخل بيوت الأفريكان الحلوة، وكل بيت مثل الربع، غرف على الصفين، وكل غرفة فيها ساكن، ولكن في الليل ينام الجميع في الحوش، البساط أحمدي، والنائم منه للسما، وسيأتي الفطور في الصباح، مربى جوز هند، وخرطة أناناس حلوة، وبيض مضروب في اللحمة، وقرع بالرز، وهو ليس مثل قرع بلدنا، ولكن القرع هناك كما البطيخة الصالحاوي الضخمة، وعيش كما البتاو المرحرح في المنيا، وسيغرفون لك صحن شطة على كل صحن طبيخ! ولو استطاع الأفريكي أن يخلط الشطة بالمربى، وأن يخلطها بالأناناس، وأن يخلطها بالمية، لفعل وهو مستريح المصارين! الأفريكي التمام يحب الشطة، والشطة أيضًا تحبه. ولذلك نال العبد لله احترام وحب الجميع لأني أعبد الشطة، والشطة مفيدة في أفريكيا؛ لأنها تلطف حرارة الجسم، ولولا الشطة لخنق الأفريكي نفسه

من شدة الحر واستراح! وحبُّنا للطرشي البلدي، والفلفل المخلل، واللمون المعصفر، دليل أننا أفريكان وأننا من قِدرة واحدة! والأوروبي أحيانًا يتظرف، وأحيانًا يتبسط، وأحيانًا يخدع الأفريكي بأنه مثله، ولكن الشطة تكشفه أمام الأفريكان، وتعريه فيبدو على حقيقته! راجل أوروبي من بلاد الإنجليز، يعيش على شاطئ الفولتا، اختلط بالأفريكان واختلطوا به، عاش معهم وسهر على المصطبة بينهم، وتزوج واحدة من بناتهم، وارتدى زِيَّهم، ولوحَته الشمس فأصبح أوروبيًّا محمَّصًا! وتبسَّط الأوروبي أكثر فأكل مع الأفريكان، بالأصابع مثلهم، على الأرض مثلهم، ولكن الطعام كان فيه شطة فسقط الأوروبي دائخًا على الفور، وعلى المستشفى نقلوه، وخرطوم طويل في بطنه دلدلوه، وغسيل معدة وتحقيق طويل عملوه، ولم يتحمل الأوروبي الصدمة فمات في الصباح. قتلَته الشطة؛ لأنه لم يكن أفريكيًّا إلا من الخارج، أما المصارين فقد كانت — كالنية — من بلاد الإنجليز! افترى الراجل الخواجا على الله، ومن افترى على الله كذب، أنا نفسي ابن حواري الجيزة، ابن رصيف ميدان الساعة، الذي على حشيش حديقة الأورمان نمت، الذي على السلم الشمال تشعبطت، الذي سلطة قوطة لهفت، وسلطة طحينة لحست، وعيش وملح أكلت، وحمدت الله. العبد لله الذي هو أنا أكلت كل شيء وأي شيء مع الأفريكان، ولكني رفضْت أن أذوق لحم القرود، رفضت بإصرار وبعناد ورأسي وألف جزمة كاوتش لا أقرب لحم القرود ولا ألمسه! ويا لحم القرود بيني وبينك حد الله، لأسباب وجيهة وأخرى قبيحة، الأسباب الوجيهة: أن القرد حيوان دمه خفيف، تداعبه نعم، تلاعبه أي نعم، تناغشه ما فيش مانع، تعاكسه ما فيش بأس، ولكن تأكله … هذا على رأي مصطفى محمود هو المستحيل! والأسباب القبيحة أنني والقرود حسب رأي داروين أبناء عمومة، وحسب الشكل والهيئة أبناء أم واحدة وأب واحد، قرود أفريكيا الخالق الناطق العبد لله، قرود وجيهة لها شوارب دوجلاس وتسريحة شعرها خنافس، ذكية تكاد تتكلم، مثقفة تكاد ترطن باللسان! والقرد نفسه مُعلَّق عند الجزار متدلي من الخطاف كأنه متشعلق في فرع شجرة، معصعص كأنه أرنب، غالي الثمن كما خنزير، خبيث الريحة كما مجرور مفتوح على الآخر! ومع أن القرود سارحة في الغابة، وسارحة في الشارع، إلا أن النوع الذي عند الجزار تربية حظيرة، وصاحبها خواجا سقطت رأسه على قطعة أرض على ضفاف بحيرة جنيف!

الخواجا السويسري كان يحتكر تجارة القرود على الشاطئ الغربي لأفريكيا، كان عنده ألوف الصيادين، وكلهم أفريكان وسارحين في الغابة، ويدوخ دوخة الأرملة ويعود ومعه صيد وفير، ويدفع السويسري شلنات في الصيد ويخفيه في الحظيرة، وفي الحظيرة

شفخانة، ودكاترة من بلاد برة، وعلف خصوصي لتسمين القرود، ومنطقة لعزل القرود المريضة، ثم كنسلتو في نهاية الأمر لتفنيط القرود وتصنيفها، وقرود تطلع على الجزار، وقرود تطلع على حدائق الحيوان، وقرود غلبانة وأمها داعية عليها، تطلع على الشارع، لكي تصنع عجين الفلاحة، وتضرب سلام لكل عابر سبيل!

الخواجا السويسري الناصح ابن الناصحة قبل أن تسطع شمس الحرية على أفريكيا نجح في تهريب نصف ثروته إلى الخارج، وعندما سطعَت شمس أفريكيا كانت فلوسه كلها قد عبرت البحر إلى بنوك برة. وعندما استقرت الأمور في أفريكيا وتأكد لديه أن كل شيء قد صار في يد الأفريكان، ترك العمل مع القرود واعتزل وباع الحظيرة والأقفاص والشفخانة والآلات بملاليم لواحد خواجا تاني ... وهو الآن يسافر ويعود مرتين كل عام محاولًا في كل مرة تهريب مبلغ مما تبقى له في أفريكيا، وحكمة الله أن صِنف الخواجات هم أسرع الحيوانات إحساسًا بالخطر، ولكن حكمة الله أنهم فقدوا حاسة الشم هذه المرة، ربما كانوا جميعًا مصابين بالزكام والتهاب الجيوب الأنفية، ففي لحظة احتدام الصراع على أرض أفريكيا، والمعركة شغالة على ودنه بين الأفريكان والبيض البلجيك، والبيض الفرنساوي والبيض الإنجليز، كان جميع البيض يعلمون أن الريح مع الأفريكان وأن النصر النهائي لهم، ولكن خطأً بسيطًا في الحساب ارتكبه البيض، وكلفهم هذا الخطأ البسيط ثرواتهم الهائلة وأعمالهم الواسعة، كان الجميع يعتقدون أن الريح في نهاية المطاف ستكون لحساب رجلٍ أبيض آخر ليس من أوروبا ولكن من بلاد بعيدة، من أمريكا! وكان البيض يعتقدون أن الأمريكي سيكون للأوروبي كالبُنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وما دام الأمريكي الأبيض سيكون عنده النفوذ والفلوس، فكل شيء سيكون على ما يُرام، وستصبح الحياة هنيةً ورضيةً كما كانت دائمًا وربما أحسن!

غير أن الأمور في أفريكيا كانت متشقلبة على نحوٍ لم يكن ينفع معها أي إصلاح، والأحوال كانت مهزوزة إلى درجةٍ لم يكن يصلح لها أي علاج، ولم يكن بدٌّ من الثورة. وبعد الثورة السياسية لا بد من ثورةٍ اجتماعية؛ لترتفع بالذين شاركوا القرود في الغابة، ولتهبط بالذين شاركوا الإله في السماء ... ولم يكن أمام أفريكيا إلا طريق الاشتراكية! وكانت ضربة للخواجات طرحَتهم أرضًا كما انطرح المتخنث ليستون على أرض الحلقة! أنا شفت واحد منهم عجوز، أو موظف حكومة طردوه من زمان على المعاش، شعر صدره أبيض شايب، وشعر رأسه نافش ومائل للسواد، قفاه أعرض من وسطه، وفخذه ولا فخذ عجل لبَّاني عند الجزار، كل زِيه شورت وقميص مفتوح وصندل رخيص، وسلسلة ذهب تتدلَّى من عنقه،

في نهايتها صورة حسناء وصليب! وجالس كما الإمبراطور في فندق الأمباسادور يشرب عصير الأناناس، ويرش كل ربع ساعة زجاجة كولونيا على أم رأسه! الخواجا هوفمان السويسراوي كان يترحم على أيام زمان في أفريكيا، وأفريكيا جنة، والجنة ليست في حاجة إلى ثورة، إنها فقط في حاجة إلى تنسيق، ولم تكن أفريكيا في حاجة إلى الاشتراكية؛ لأن المشكلة الاجتماعية لم تكن حادة … بل لم يكن ثمة مشاكل على الإطلاق! لا أزمة مساكن ولا أزمة توزيع ثروة، والأرض الصالحة للزراعة أكثر من الأرض المزروعة، والذي في الغابة يأكل كالذي في فندق الأمباسادور! منطق الخواجا هوفمان الكاذب الذي كان يملك أربعة ملايين جنيه وكل أهل أكرا يملكون الستر! والذي كان يتعالج في سويسرا من الإنفلونزا وتنقطع ساق الأفريكي بالمنشار، وتُقلى في الزيت إذا لدغه دبُّور زن على خراب عشه! وأفريكيا كانت جنةً فعلًا ولكن للخواجات، بيوت الخواجات مثل سراي عابدين، السلك الشائك حول الحديقة، والسلك الناعم حول النوافذ والأبواب! والمفروشات من باريس، والسيارات من ألمانيا، وأجهزة تكييف الهواء من إنجلترا، والملابس الداخلية من سويسرا، والخارجية من إيطاليا، والمشروبات من اسكتلندا، والطعام وارد خصوصي من مطعم مكسيم! وفي البيت ألف خدامٍ أفريكي وألف خفير، وحرس خصوصي بالسلاح، وعشر بنات أفريكان للأطفال! هذه الجنة لم تكن في حاجة إلى تغيير! لأن التغيير لم يكن في صالح الجنة!

خواجا آخر من دول عرفتُه في بارات وينيبا، الباقي له من أيام العز القديم قصرٌ مهجور لا يستخدم منه إلا حجرة وفراندة على المحيط! سكري يشرب أردأ أنواع الكونياك، ويلعب طول النهار بعصا البلياردو، مذهول لا يكاد يصدق أن الحياة انتهت على هذا النحو، مذعور يتصور أن السجن سيكون خاتمة حياته. الراجل الخواجا الهلكان الذي تصورته — لسذاجتي — محطَّم وصايع لم يكن حقيقةً كذلك، لم يزل كالكلب يلعب بذيله، عرض على العبد لله ذات مساءٍ خمسة جنيهات أفريكي مقابل كل جنيه إسترليني، ولما لم يكن معي جنيهات أفريكي ولا إسترليني فقد أبدى اعتذاره لهذا العرض، وادَّعى أنها لصديقٍ مسافر إلى الخارج للعلاج! وست خوجاية مكرمشة الرقبة منتوفة رموش العين، معصعصة الساقين تستطيع بقصبة ساقها أن تذبح فرخة، ست متهتكة ومتهالكة شرهة تريد أن تشرب من الحياة قبل أن تنتهي، وتمص رحيق الدنيا قبل أن تذهب! البعيد جوزها كان صاحب أكبر مصنع للسلاح في أفريكيا أيام الاستعمار! حِراب يصنع، سِهام يصنع! نِبال يصنع، سكاكين يصنع، خناجر يصنع، مطاوي يصنع، والأفريكان يشترون ويدفعون، والخواجا يكسب فلوس بالكيلة، وبالفلوس يؤسس شركات في بلاد برة، ويدخل شريك في بنك فيما وراء البحار! والخواجا جوزها رجل أعمال ومشغول طول النهار، والمكاسب

تلبخ، ولا وقت عنده للحب، ولا وقت أيضًا للهزار، نهاره في مصنع السلاح، وليله على مائدة القمار، والست حَرمه سارحة تلطش في مخاليق الله، والعيال الأفريكان أشدَّاء كما الأسود، فحُول كما العجُول، متدفقين كما الأنهار، والست تشرب حتى ترتوي، وفي البداية كانت بشبابها تصطاد. وفي النهاية كانت فلوس جوزها الطعم الذي يجذب الضحية! فلما أفَلَت شمس الخواجات في أفريكيا، صفَّى الزوج الناصح أعماله واستعد للرحيل، ومجنونة بنت مجنونة الست حَرمه لو سافرتْ معه، من ذا الذي يستطيع أن يروي ظمأها في أوروبا الشاذة المتهالكة؟ شُبان أوروبا الناعمون لا يستطيعون إطفاء نارها المشتعلة، هذا إذا وجدَت من يقبل أن ينظر إليها بعين الرضا! أفريكيا هي البريمو، وأفريكيا وبس، مصنع الرجال التمام، ولا أحد يستطيع أن يسيطر على امرأة بيضة شرهة مثل أفريكي يعدل المزاج! وحزنت المرأة فلا تبرح أفريكيا ولا تسافر، وحزن زوجها أيضًا فأصر على الرحيل، وساومها فساومَته، ومنحَها الطلاق وعدَّة ألوفٍ من الجنيهات، وغادر أفريكيا إلى بلاده، وبقيَت على الشاطئ الغربي لأفريكيا تبحطر فلوسها تحت فخذَيها، وتدفع فلوسها للشديد القوي في ميدان الغرام! وكلما تقدَّم بها العمر ارتفع الثمن الذي تدفعه، وانخفض الرصيد الذي في البنك، وذات صباح استيقظَت على كارثة ... الرصيد أصبح صفرًا، وهي نفسها أصبحَت في حالةٍ يُرثَى لها! ولكن أي شيء يَهون وأي شيء محتمَل ولا تغادر أفريكيا، وهي على أي وضعٍ تستطيع أن تعثر على صحبةٍ مقابل زجاجة كونياك أحمى من الزفت. يشربها حتى يفقد عقله، وفي الظلام يصبح كل شيء عند الراغب المحموم سواء، ويا ميت ندامة على المرأة المتهتكة المتهالكة المريضة بداء العُري، ملابسها تكشف أكثر مما تخفي، منظرها يسدُّ النفس ويغم الفؤاد، عروق ساقها كمواسير المجاري، زارقة ونافرة ومتشابكة كأسلاك الكهرباء، شعرها ناحل من الأمام وصالعة، وفروة رأسها مكحوتة كما بلاط متخرب في قصر من بتوع زمان! وعلى وجهها المقدد الملدن مساحيق بخمسة جنيهات، وحول رقبتها بودرة كأنها كعكة عيد مرشوش عليها سكر ناعم بدون حساب! والست مسكينة يا حسرة قلبي، فقدَت فلوسها، وفقدت شبابها، وفقدت عقلها، وأصبحت مجنونة، تبكي لأقل حركة، وتلطم بعد كأس واحد من الشراب! وعواجيز أفريكيا يسخرون منها، وشُبان أفريكيا في غنًى عنها، فأفريكيا عامرة دائمًا بهذا الصنف من النساء! ستجد دائمًا ستات على أعتاب الشيخوخة تتنقل في أفريكيا كالغربان، يلهثن وراء قطار اللذة بكل وسيلة وبأي وسيلة، معهن شنطة ملابس وشنطة فلوس، وستجد نساءً من طرازٍ آخر، ستات في عمر الورد، حلوين كما البغاشة، منفوخين كما التفاح، خدودهن مشدودة كما الغربال، شعورهن

سايحة كما السمن البلدي، هؤلاء جئن للتجارة، وهي تجارة لا تحتاج إلى رأس مال، سهرة حلوة، وضحكة ناعمة، وقعدة طرية، وتنهال الشيكات والفلوس، ودائمًا ستجد مع هذا الطراز من النساء زوجًا طيِّبًا يُجيد تغميض العيون، وينام في الوقت المناسب، ويعتذر وأنت جالس مع الست لموعدٍ هام، وقد يسألك أحيانًا عن مائة جنيه فكة، وأحيانًا يثور ويتشاجر مع الست أمامك لأنها ترغب في عربة مرسيدس آخر طراز! أنا التقيْت بواحدة من دول، حلوة كما لهطة القشطة، ناضجة كما الجوافة بتاعة حلوان، معسلة كما التين بتاع برشوم، ريحتها طعمة كما بتاع العمار يا مشمش! والأخ زوجها راجل طويل ومبروم ولابس نظارات، ووجيه أوجه من بطل سينما، يتكلم بهدوء ولا فيلسوف على جبل أثينا، مِقدام ولا هنيبال في زمانه، ولكن الرجل مسكين مُجوَّف من الداخل، وهو يحب الطعام ويحب الرقص ويحب السهر ويحب السفر، ولكنه فيلسوف لا يحب الفلوس! وهو من أنصار زمان، زمان كانت التجارة حلوة، لم تكن معقَّدة ولم تكن صعبة، المقايَضة هي خير وسيلة للحياة، الرأسمالي المستغل يدخل السوق برأس مالٍ ويخرج من السوق برأس مالٍ أكبر، والرأسمالي الطيب يدخل السوق بسلعة ويخرج بسلعة. وهو رأسمالي وطيب، ورأس ماله ست حلوة مهاودة، ضحكتها لها رنين، ولغتها لها سحر! وهو يدخل بها السوق ويخرج من السوق بسيارة كاديلاك، بتذاكر طيارة، بفاتورة لوكاندة، المهم أنه ليس مستغِلًّا، إنه فقط يريد أن يعيش! الست الحلوة وجوزها الْتقيْت بهما ذات مساءٍ حارٍّ كالحريقة القايدة في أفريكيا، الراجل العبيط ظن العبد لله لبناني مليونير، فتبسَّط معي وتلطَّف، وحكمة الله أن أغنى ناس على الشاطئ الغربي في أفريكيا كلهم من لبنان، وكلهم أصحاب ملايين، ورغم جلبابي وتلبابي — ليست لها أي معنى، ولكنه السجع اللعين قاتله المولى — أقول: رغم جلبابي وتلبابي فقد اختصَّتني المرأة بحنانها وجمالها ولعبَت معي بنج بونج، رغم أني لا أجيد اللعب، ولعبْت معها بلياردو وأنا أظن أنها حكشة، وجاعَت الحلوة اللعينة فمالت على أذني تطلب أكلًا، وأعدْت لها ترابيزة، وصفقْت أطلب لها جرسونًا، وطلبْت للست ديك رومي وسلطة خضرا وفواكه بالسبَت وقهوة على الريحة، وتلطفَت أكثر فأجلسَتني على يمينها، وتنازل جوزها فدعاني إلى الأكل معاه، وأكلْت حتى شبعتُ، وأنا حتى هذه اللحظة إذا أكلْت أكلةً حلوةً أصرخ من اللذة، إذا لهفْت فرخةً مشوية أبكي من شدة الانشكاع، وإذا رأيتَ العبد لله يأكل أكلةً طعمة فستحكم على العبد لله بأنه مجنون، لا بروتوكول ولا إتيكيت ولا دياولو، ولذلك أُحرَم من الطعام في الموائد المحترمة، أكلْت مرةً مع سبعة ملوك على مائدةٍ واحدة في مؤتمَر الملوك والرؤساء العرب في بيروت خلال

العدوان، وعلى الترابيزة ديوك رومي كما الخرفان، وخرفان كما العجول، وأطباق حلو تشيِّب الطفل الرضيع، وساعةً على المائدة لا أمدُّ يد ولا أفتح بُق، ومصاريني تكاد تزعق بالصوت الحيَّاني تطلب أكلًا، ولكن العبد لله لا يستطيع؛ لأني لو أكلْت لأصبحت فضيحة بجلاجل، والست معجبة غاية الإعجاب، مبسوطة نهاية الانبساط، على الرشاقة والأناقة التي هي طابع العبد لله، وبعد الطعام حضر الجرسون وكانت فضيحة، الست الحلوة ظنَّتني لبناني، وأنا الجعان الفجعان ظننْت أن الست طيبة وغنية وفي أموالها حقٌّ معلوم للسائل والمحروم، ولما كنت أنا المُصفِّق وأنا الطالب فقد دفعْت آخر شلن في جيبي وأخذْت بالباقي علقة! وحلفْت ألفين يمين لا أهوب على واحدة حلوة، ولا أبغبغ مع ست معجبانية، وما دام لا خيل عندي أهديها ولا مال، فلأنكمش في حالي وأجلس في أمان الله، ولكن عقلي الزنخ حرَّضَني بعد ذلك، الحياة تجارب، والتعليم ليس ببلاش، التعليم بالفلوس، أو بالضرب على الأقافي، وما دام فلوس لا أملك، فأنا قفا أملك، وعريض والحمد لله، طويل مضبوط، يستحمل ضرْب أزلي، ولتكن الأكف الهابطة على قفاي العريض هي مصاريف الدراسة! لقحت جتتي مرة أخرى على بار على الشاطئ، السقف من خشب الجوز، والحيطان في لون الورد، والأرض سجاد عجمي، والمشروب ويسكي حلو، والضوء خافت، والموسيقى حالمة، وترابيزة حلوة في الوسط، بنت بيضة وبنت سودة ومعهم رجل أسود، ثلاثة ورابعهم أنا، صحبة حلوة وفاهمين حالي، فأنا مفلس وغلبان وكفران وأستحق الحسنة، وطالب حب ولعب وخمسة هزار، يخففوا عني المواجع! والست البيضة هي كل شيء في القعدة، مُحسنة ربنا يطول عمرها طلبت للعبد لله ويسكي، كريمة طلبت لي طعام، بنت ناس زغزغتني وأضحكتني وقدمت لي البنت السودة، وأشهد وأحلف أنها أجمل من ملكات الجمال، وسهرة حلوة ستكون، وسأمسح بلاوي الليالي الماضية، وسأغني كما حمار وحشي وسأرقص كما جاموسة، وسألعب مع البنت السودة لعبة القط والفأر! ولكن ولد أفريكي طيب دخل البار في الوقت المناسب وسلم من بعيد فتجاهلتُه، فأنا في ساعة التجلي لا أرغب كثيرًا في السلام والكلام! ولكن الولد الأفريكي الطيب شدني من ذراعي وقال: لا تذهب معهم، إنهم عصابة، والست البيضة هي رأس العصابة وعقلها المفكر، وأنت يا غلبان، فراخ ستأكل، وويسكي ستشرب، وعلى الموسيقى سترقص، وليلة حلوة ستقضي، ولكنك ستكون بطل في رواية سيتم تسجيلها بالكاميرا في غفلة عين، وستصبح صورتك غدًا في متناوَل الجميع، وستُباع في السوق بقرش صاغ واحد، وستصبح فضيحة ولا حرامي اتعكم في جامع، ولا راجل مش جدع لا مؤاخذة اتمسك في مولد سيدي إبراهيم! وخرجْت من البار وتوجهْت إلى

الشارع، ومن شارع إلى شارع إلى أبعد مكان استطاعت ساقي أن تحملني إليه! وتوبة من دي النوبة لا أدخل بارًا على الشاطئ. بقايا الخواجات في أفريكيا، أوكار لا تزال تشغل حتى الآن بكل أنواع السفالات! وسنحكي عن دخانيق أفريكيا وسراديب أفريكيا والبؤر التحتية في أفريكيا.

الجنة ... ومبرات ... والست أبابا

معذرةً لإخواني النشَّالين على رصيف محطة مصر، وفي ميدان السيدة، وفي ترماي نمرة ٦، معذرةً لهم جميعًا، سأستعير منهم لفظًا من قاموس النشل المصري هو لفظ الواحدة، والواحدة يا إخواني المنشولين هي المحفظة، ويقولون: كُلِ الواحدة، يعني الْهف المحفظة، ويقولون أيضًا: ضُم الواحدة، ويُقال: سِف الواحدة ... والله أعلم!

المهم يا إخواني النشالين والمنشولين ... أفريكيا لم تكن قارةً ولكنها كانت واحدة، نشالين أوروبا الحلنجية الزملطحية هبروها ومزقوها ووزعوا الفلوس حسب دور كلٍّ منهم في عملية النشل، الذي شاغَل الزبون له ربع الواحدة، الذي أكل الواحدة له نصيب الأسد، والناضورجي الذي راقب الطريق خوفًا من المخبرين وعساكر البوليس له أيضًا حسنة!

ولقد قامت إسبانيا والبرتغال بمشاغلة الزبون، وهبرَت إنجلترا وفرنسا الواحدة، واكتفَت بلجيكا وألمانيا بدور الناضورجي، فلما تمردَت ألمانيا على هذا الدور طردها النشالون الكبار في حرب ١٤ وانهالوا على الواحدة ينزحون منها آخر بريزة وآخر شلن وآخر قرش تعريفة ... ولو امتد بهم الأجل قرنًا آخر لنزحوها إلى آخر عشرين خردة وإلى آخر بارة وإلى آخر صولد!

ومن أجل الفلوس فعل النشالون كل شيء وأي شيء، استولوا على الأرض، وباعوا الناس في المزاد، وهبروا الغابات والحيوانات، وفحتوا الأرض، فلما انقفلت كل الأبواب وانسدَّت كل المسالك تاجروا بالدين واتجروا بالأعراض!

وللحكيم الأفريكي حكمة تقطع نياط القلب: «في البداية كان معنا الفلوس وكان معهم الإنجيل، وفي النهاية أخذوا الفلوس منا وأعطونا كتاب الرب!»

ولذلك ستجد في أفريكيا محلات ولا مؤاخذة فشر بيوت الجيشا في اليابان، محلات آخر مودرن وآخر طراز، وستجد كل شيء فيها أفريكيًّا أسود، البنات، والخدم، والحشم، إلا الكيس فصاحبه رجلٌ أبيض!

العبد لله كان يتمشى على شاطئ البحر في أفريكيا، وعلى الصفَّين محلات ولا البيجال في باريس، بارات صغيرة منظرها حشمة، وتدخل فيها فلا تلمح شيئًا، أنكت من هذا: على الجدران صور القديسين والشهداء، صور ناس طيبين، وحول الرءوس هالاتٌ فجَّ النور منها!

وعندما اقتحمْت بار الكناري — وبالعربي بار البط — لم أجد شيئًا إلا بارمان أصلع حالق بمنشار، وواحد سكري يتناوَم، وبنت سودة حلوة، وجهها زي الحلاوة العسلية، مسمسمة زي الكتكت، شعرها مفلفل زي العروسة اللعبة، جسمها مفصل مفصص كأنها بنت بلد بريشة جمال كامل! ثوب البنت بسيط وأنيق، ومساحيقها نادرة، ومن عنقها يتدلى صليب على النهود يتأرجح! أنا ظننتها — لخيبتي — تلميذة في مدرسة داكار الإعدادية، بنت ناس طيبين، منتظرة واحدة قريبتها، مسافرة مثل حالي، فاتها القطار فجاءت إلى البار تسكر وتتمنجه! ولكن لفَت نظري كتابات كثيرة على الحيطان وبألوانٍ فاقعة، رُحت أقرأ ولم أفهم. الكتابة كلها بالفرنساوي، وأخوكم يفهم في الفرنساوي كما يفهم سيد الملاح في علم الذرة.

ملحوظة: «سيد الملاح» يفهم كويس في الذرة!

الله يخرب بيت الجهل؛ لأن حديث النبي المختار: «من تعلم لغة قوم أمن شرهم.» ولو أنا تعلمت لغة الفرنساوي لأمنت شر البت الكرملة ... البت الذكية الفهلوية أدركَت أنني مَقطَف فنهضَت وجاءت لحد عندي، وسألَتني: تعرف إنجليزي؟

أجبْت: أعرف على ما قُسم!

أخوكم الضعيف يخاف أن يجيب بنعم إذا سألني أحد ... هل تعرف الإنجليزية؟

السبب يا إخوتي أنني عندما زرْت لندن أول مرة دخلْت مدرسة في أكسفورد ستريت، ودخل الأستاذ، إنجليزي تمام، يتكلم من طاقةٍ واحدة من مناخيره، والطاقة الأخرى يستعملها في الشهيق والزفير!

سألني الواد الأستاذ: هل تعرف شيئًا من الإنجليزية؟

فقلت على طريقة ابن البلد البلطجي: نعم ... أنا أعرف الإنجليزية كويس جدًّا. ونظر نحوي في بلاهة لا أدري، في خبثٍ لا أعرف، وناولني كتابًا وقال: اقرأ. وقرأْت وتلعثمْت

وهطل العرق على وجهي كما تهطل أمطار الصيف على جبال بلاد الحبش، وانكسفت كسفة دباغ ظبطوه على ترابيزة عشا بدون دعوة.

وفي النهاية سألتُه أنا: كم عام يلزمني يا خواجا لأعرف الإنجليزية بدرجة جيد جدًّا؟

وقال الواد الأستاذ الإنجليزي: بدرجة جيد جدًّا؟

– آه يا خواجا.

وفكر قليلًا وقال: حوالي ... مائة عام!

وعرفْت بعد ذلك أنها ليست نكتة، فليس في العالم من يجيد الإنجليزية بدرجة جيد جدًّا ... كان في العالم اثنان فقط يتكلمان الإنجليزية كما ينبغي أن تكون: تشرشل، والثاني المرحوم نهرو ... وكانا يتكلمان الإنجليزية بدرجة جيد وبدون جدًّا! لذلك لم أكن متواضعًا عندما أجبْت على سؤال البنت الحلوة ... على ما قُسم ... بل كنت مغرورًا أشد الغرور! المهم، البنت السودة الطعمة قرأت الكتابة وترجمَت، على الحيطان مواعظ هلس وحِكم هلس! وكلمات مأثورة تصلح شِعارًا لغرزة ... والمرأة القبيحة ضمان لك من دلال الحلوين، واللذة هي قمة جبل الحياة، والشجعان هم الذين يتسلقون الجبل إليها، وكلمات أخرى لا أستطيع نقلها هنا؛ لأن أي قانون عقوبات في العالم يعاقِب عليها، حتى قانون عقوبات المسرح الكوميدي. البنت الحلوة الطعمة غمزتُها بسيجارة إنجليزي، فغمزَتني بسيجارة ملفوفة لها طعم العجمية ورائحة المسك، يبدو أن شكلي — والله أعلم — يوحي بالعبَط أو يوحي بالثراء. بعد نفسين من السيجارة شدَّتني البنت من يدي واقتحمَت بابًا لا يلفت النظر. الباب الصغير الضئيل الحقير يؤدي إلى شيءٍ باهر كالحقيقة غامض كالأحلام، صالة ولا صالة تزحلُق على الثلج، باركيه ناعم فشر صلعة باشا فخيم الصلع! على الحيطان صور بالكاميرا ولوحات بالزيت، تصلح كلها متحف لتاريخ العلاقة بين المرأة والسيد الرجل، وكل شيء في الصالة وأي شيء مخصوص وتمام من أجل اللذة، الأنوار خافتة، الموسيقى كأنها نغمات صادرة من قلب المحيط، البار من خشب الورد، في الأركان موائد خضراء، عليها مفارش جوخ فشر جُبة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، الحيطان نفسها مبطَّنة بالقطيفة، حمراء كما البطيخ المجيدي، ليِّنة كما الفطير المشلتت ... عجائب الحياة في هذا المكان أن كل الرجال بِيض كالشمع، وكل البنات سُود كما أرض المنوفية، والرجال سقعانين مرتاحين مدلدلين، والبنات نار والعة، جسم وكسم وشكل سبحان الذي صور والذي دور!

البنت السودة الطعمة التي هبرَتني وأدخلتْني الجنة — وعلى فكرة اسمه الجنة — البنت الطعمة الحلوة اسمها أبابا، حبشية هاجرت من شرق القارة إلى غربها. من أديس أبابا إلى الخرطوم إلى كانو إلى لاوس إلى أكرا إلى داكار، كانت تملك محلًّا في العاصمة

الحبشية، وهبط عليها ذات مساءٍ راجل أوروبَّاوي من الدقَّة القديمة، ساعة جيبه أكبر من الرغيف البلدي، كتينة الساعة ذهب خالص بندقي، برنيطة سيادته بحوافي ولا برنيطة واد شقي من بتوع تكساس، الحذاء أسود أجلسيه لَّيع عليها مفرش جوخ معتَبَر، أسفل ذقنه لُغد ولا رأس عيل صغير، محفظته منتفخة ولا بنك كاتنجا! وأُعجِب الرجل بالمكان وبالست صاحبة المكان، وعرض عليها الزواج ووافقَت على الفور، وفي أول يوم وصلتْ فيه داكار ملكةً أدركَت أن الرجل الذي هو زوجها، ملِك الليل في داكار، وداكار هي ملِكة الليل في أفريكيا، كانت زمان مخزن لتخزين العبيد وتصديرهم للعالم، واليوم أصبحَت همزة الوصل بين أفريكيا وأمريكيا، ومن داكار عدِل تطلع على أمريكا الجنوبية، ومن داكار تستطيع أن تتوغَّل في القارة إلى أي اتجاه، الراجل الأوروبَّاوي السمين أبو لغد تخين تزوج البنت الحبشية؛ ليستفيد بعلمها وبذوقها، ولأن الراجل الأوروبَّاوي مليان ودفيان فقد قبِلَت البنت الحبشية، وصفَّت أعمالها في أديس أبابا وفي الخرطوم، فقد كانت تملك أكثر من بيت للمتعة على شاطئ النيل الأبيض! وشمَّرَت البنت عن ساعدها واشتغلتْ بهمة، جميع البنات البيض طردَتهنَّ من بيوت داكار، الرجل الأوروبَّاوي الوافد على أفريكيا من وراء البحار لا يريد أن يرى نفس المناظر التي يراها في نيويورك أو باريس أو لندن، إنه قادم إلى أفريكيا ليعيش في جو أفريكيا، والمرأة البيضة المهلبية ستفسد المنظر، وانتعشَت أعمال الرجل الملظلظ.

على يد الست أبابا، وأبابا يعني الزهرة، وهي فعلًا زهرة، شكلًا ورائحةً وطعمًا، ذكية تعرف تلاغي، جريئة لا تخاف، وأبابا مسحَت القارة طولًا وعرضًا، ومسحَتها كيبتاون إلى الجزائر ومن نيروبي إلى ساحل العاج، وأبابا الخبيرة العليمة تعرف أن أجمل ليلٍ في أفريكيا كان في ليوبولد فيل قبل أن تحترق الكونغو بنار الثورة ... ويأتي بعدها أديس أبابا فنيروبي، ثم داكار في آخر قائمة الدوري!

وملوك الليل في كل هذه الأماكن عصابةٌ واحدة، وشركةٌ واحدة، وعلى اتصال دائم لتحسين العمل ورفع مستوى الشغل. ولأنهم أصحاب مصلحةٍ واحدة فقد اجتمعوا يومًا ضد الثورة المشتعلة في أفريكيا ... بيوت الهوى والغرام والمتعة اللذيذة كانت مراكز للثورة المضادة، البت جوليانا ملكة الليل في الكونغو كانت أكبر أعوان تشومبي ضد لومومبا، وعندما قبضوا عليه وجرجروه في الحبال، سهر الجنرال تشومبي، الذي هو في الجنرال تمام كما الجنرال إليكتريك والجنرال موتور، سهر حتى الفجر، وفي الصباح منحَته جانيت وسام ربطة الرأس، وهو إكليل من الذهب الخالص، عليه قطع تشبه العملة، على كلٍّ منها

صُكَّت صورة جانيت عارية حتى من السوتيان! ولأن العين كانت مفنجلة والمحفظة مفلسة فقد اكتفى العبد لله بالسنكحة والبحلقة.

شارع الميناء في داكار يمتلأ بكل عجيبة وعجيب، محلات لشرب البيرة، ومحلات لتدخين المسائل، وهي مسائل ليست غبارة ولكن غبرة، ريحتها كما ريحة كلبٍ ميت على الطريق الزراعي، نفَس واحد منها يقلب ثور صومالي، والشارع نفسه يعج بالناس من كل الأجناس، بحَّارة من بنما، وخواجات ركاب من أمريكا، وسياح من أوروبا، وصياع من البرتغال، وتجار من لبنان، وناس بشوارب من اسكتلندا، وناس بذقون من الهند، وكل شيء حاضر وجاهز وعلى ودنه كما بيروت في زمانها، محلات ستربتيز تلاقي، محلات قمار تلاقي، محلات نصب تلاقي، ويا بخت من ينزل داكار ويطلع سالم، وعيال قبارصة كما القشاط، معهم مسدسات صوت ومطاوي، ومقصات يضربون، روسيات يبطحون، رُكب يقفعون، مَحافظ ينشلون، قماش مغشوش يبيعون، واحد قتيل يُهربون.

وإذا كان اللبنانيون والهنود معهم مفاتيح الباب المشروع في داكار؛ فالعيال القبارصة معهم مفاتيح الأبواب الخلفية!

وإذا كان الأوروبي السمين هو مالك الليل؛ فالعيال القبارصة هم ملوك مِلك الليل نفسه؛ لأنهم رسوم على الكباريهات يحصلون، وفردة من البنات يقبضون، ومن يحتج يأكل لما يشبع ... وربما بعدما يشبع!

أنا نفسي كنت هاكل علقة ولا زنجي في بلاد الأمريكان، البت مبرات عجبتني وشغلتني، وحدثتها وحدثتني، وضحَّكتها وضحَّكتني، والبت مبرات حبشية، وعجبي على الحبشيات، أهل لطافة وظرافة ونظافة آخر تمام! ومبرات يعني النور، يعني الضوء، على جبينها الأسمراني صليب، مدقوق، وعلى ذقنها صليب آخر، وحول عنقها صليب، وعندها من المبررات ما يجعلها أكثر الناس إيمانًا، لا تصدق أن الناس الطيبين هم أكثر الناس إيمانًا، أنا أعرف واحد مأمور مركز كان في الريف منذ عدة أعوام، وكان أغنى من هولاكو، وأظلم من فاروق، وكانت المسبحة دائمًا بين أصابعه، وسجادة الصلاة دائمًا خلف ظهره، وكان يربط رأسه بفتلة صوف خضرا وكأن رأسه مجزوعة أو مقصوعة، وكان من أهل الطريقة الخلوتية، ومن أتباع محمد الكحلاوي! وابن قلاوون أيضًا كان عهده أكثر العهود ظلمًا وظلامًا وغمًّا وهمًّا، وجثث ميتة في النيل ألقى، وجثث صاحية على الخوازيق وضع، ومؤامرات صنع، وحمامات دم عمل، وفي الوقت ذاته أقام مائة مسجد! شيء طبيعي لعل الله يغفر له سيئاته ويتقبله قبولًا حسنًا!

البنت مبرات من هول ما صنعت ومن هول ما ارتكبت، دقَّت الصليب على جبهتها وعلى ذقنها، ولو تقدر لدقَّت الصليب على بطنها وعلى ظهرها! والله على مبرات وأنا قاعد معها، على رصيف الميناء والهوا الطازة يسفخ في عظمنا، والبنت في ثوب يصلح للبحر ولا يصلح للشارع، وأنا بالجلباب السكروتة والشبشب زنوبة، والسبحة بين صوابعي، والسيجارة البلمونت بين شفتي، والريحة آخر هفهفة، والجو آخر مملكة، والبنت مبرات حساسة وحشاشة، ضحكتها ترن ولا طبلة مسحراتي، وعيونها تبرق ولا كلوب في قهوة على ترعة المحمودية، وفجأتن على رأي واحد صاحبي، هبط علينا واد أبيض كما بتوع روايات هوليوود، بشورت أزرق وفانلة صنع المحلة، وجزمة كاوتش من بتوع باتا، وشعر ناعم مسبسب نازل على قفاه، وسوالف يا ميت حلاوة ولا سوالف سيد درويش، وأكتاف ولا أكتاف سيد نصير، وعود ولا رضا بتاع الإسماعيلي، ورجولة ولا ميمي درويش، ونظر للعبد لله كأنه ينظر إلى ذكر كابوريا، ولف البت مبرات قلمين ثلاثة، ووضعْت إيدي على القزازة التي أمامي أبغي ضربًا، فلما رأيْت الهيئة فشخْت بُقِّي عن ابتسامة، وقربعْت من القزازة كأنها هواية عندي من زمان!

ويا ميت ندامة على اللي حب ولا طالشي، الواد إياه قُبرصي تمام، وله سلطان على البنت مبرات، ولا سلطان الاستعمار على الولد البدر، وبعد الأقلام التي طرقعتْ ورنتْ، سحب البنت مبرات من إيدها، وباسها كما الواد الممثل في فيلم من إنتاج جولدوين ماير!

وبقيتُ وحدي مذعورًا أقرأ الفاتحة دَورًا، وأقرأ الصمدية دور آخر، ثم أطلقْت ساقي للريح هربًا إلى الميناء!

أغرب شيء سمعتُه في داكار أن بعض المسلمين الحجاج يسحبهم المتعهدون من قلب القارة إلى شاطئ داكار باعتبار أن الحج هناك.

حكاية سمعتُها ولا أستبعدها، فكل شيء ممكن وكل شيء ماشي في داكار. بيوت المتعة لا تكتفي بتقديم المتعة فقط، ولكنها تقوم بتصديرها خارج الحدود. والرجل الأبيض الذي ذاق كل أنواع اللذة، وتمرمغ كما الحمار لا مؤاخذة في كل أنواع المتعة، أصبح ملولًا يريد أن يجرب شيئًا آخر جديدًا! وفي أوروبا البنت الآن معجبة بالرجل الأسود، في شوارع لندن وباريس وبروكسل ... كل بنت كما لهطة القشطة ساحبة واد كما قطعة الفحم، والبنت الأوروبية الشاذة هي التي تحب الرجل الأبيض، أما البنت السوية المستوية فهي التي تحب الرجل الأسود الفطيس. الرجل الأبيض اليوم يقلد الست بتاعته، وكل راجل أبيض يموت في بنت سودة، وبعض البيض غير متوفر لهم السفر إلى حيث موطن البنت السودة، فلا أقل

من أن تنتقل البنت السودة إلى حيث موطن الرجل الأبيض. واليوم تعبر البحر إلى أوروبا قوافل وعليها عبيد، ولكن الصنف كله نساء. تجار الليل في أفريكيا هم أصحاب البضاعة، وهؤلاء البنات شحنة مرسلة من الباب للباب إلى أحياء الدعارة في باريس وفي لندن وفي لاهاي وفي فرانكفورت! ليس هذا فقط ولكنهم يشحنون أيضًا خدامات للعمل في أوروبا ... والبنت الأفريكية سعرها أرخص من تراب لندن! وهي في الخدمة بريمو، تخدم وتغسل وتطبخ بشلنات لا تكفي لوجبة طعام في بلاد برة. أفريكيا الغلبانة ... خطفوا منها رجالها في الماضي واليوم يخطفون منها نساءها ... بؤر الرذيلة في أفريكيا أشياء لا تخيف، وهي على عكس مثيلاتها في أوروبا، لها نفس الشكل ولكن دلالتها عكسية. في أوروبا هي قمة حضارة، وفي أفريكيا هي علامة على نهاية نظام. النظام الذي استقر واستمر خمسمائة عام لا تزال هذه بقاياه ... ولكنها بقايا كالشمع تسيح الآن تحت شمس الثورة في أفريكيا. ستجد هذه البقايا موجودة بكثرة في البلاد التي تقاتل الآن معركة المصير! وهي الآن مجرد فلول تهرب وتتجمع في مراكز، في انتظار اللحظات الحاسمة، وموعدها في أفريكيا قريب!

في غانا مثلًا في عهد نكروما ... بنات الليل — مخلفات عصر الاستعمار — يعملن الآن في محلات البيع والشراء، وبعضهن يعملن الآن في حقول الكاكاو. أكبر مراكز بيع اللحوم البشرية للمتعة والمزاج في داكار وفي كاتنجا وفي أنجولا وفي روديسيا وفي رأس الرجاء الصالح، أو الطالح لو كانت الأسماء تنطبق فعلا على المسمَّيات!

وعندما تؤمِّم أفريكيا ثروات البيض الأغنياء فهي تسترد لأهلها أحقر عملة تضخَّمَت من عرق النهود وعرق الأفخاذ. ملوك الليل في أفريكيا الناصحين المفتحين، كسبوا من النساء، وبنوا بالفلوس فبريكات سجاير، وشركات خمور، ومصانع سلاح. ملك الليل زوج الست أبابا هو ملك مكاتب تصدير الكاوتشوك والقصدير والكاكاو!

الرجل القواد أصبح أكثر الناس احترامًا في الهيئة الاجتماعية، وأكثر الناس نفوذًا هناك. ولو فيه عدل ... ولو فيه محكمة عادلة لحكموا على الرجل السمين بالتخريط كما الملوخية، وبالتمليح كما الفسيخ، وبالتقطيع كما لحمة الرأس! ليس البِيض فقط وحق الله ولكن معهم أيضًا بعض السود الدفيانين المليانين ... وذنب هؤلاء أكبر!

وأنا في أكرا حكمت المحاكم على ثلاثة من كبار الأثرياء بالسجن مدى الحياة؛ لأنهم نصبوا على الحكومة في صفقة ولا صفقة السلاح الفاسد في فلسطين. الأثرياء الثلاثة كانوا عملاء الاستعمار وقلنا معلهش، ثرواتهم مشبوهة وقلنا معلهش، ومشوا مع الثورة وقلنا زي بعضه، واشتغلوا مع العهد الجديد في أفريقيا وكسبوا من وراه وقلنا ماشي، وباب الثورة يتسع للجميع!

ولكن الحادثة التي جرت تُثبت أن الحية لا يمكن أن تتحول إلى دودة، والكلب لا يصبح أسدًا ولو غيَّر جلده، والحمار لا يصبح حكيم الزمان ولو ارتدى نظارةً بشنبر سلك!

الأثرياء الثلاثة بتوع غانا ورَّدوا للحكومة آلات لرش المبيدات، الآلة بخمسين جنيهًا إسترلينيًّا، ولكن الآلة كانت خسرانة، ومش بس كده ولكن الآلة بعشرين جنيه ثمنها في لندن، فباعوها بخمسين جنيهًا للحكومة وهبروا مليون جنيه مكسب من عرق ودم الشعب ... والثلاثة مركزهم لندن، فأرسلَت الحكومة تطلب منهم الحضور من أجل صفقة جديدة، وصدَّقوا العُبط فحضروا على طائرةٍ سريعة، وفي المحكمة لطموا وعيطوا كما النساء خلف ميِّت طالع من حواري الجيزة، وسجنوهم مدى الحياة وصادروا أموالهم في غانا.

أولاد الهرمة حطَّموا العالم الذي كانوا أسياده، ويحاولون اليوم تحطيم العالم الجديد. ملعون أبو الفلوس تعمي العيون وتضع غشاوة على العقول. وبدلًا من أن تشبع الإنسان تتحول إلى جيفة يتبعها الإنسان كالكلب. ولكنها دائمًا تقوده إلى السجن، وتقوده إلى المشنقة، وتقوده إلى اللعنة، وإلى البصق على الوجه!

ومن أجْل الفلوس تاجروا في أفريكيا بكل شيء، بالناس وبالأرض وبالعِرض وبالدِّين! ولكنها الفلوس مُحركة التاريخ، وصانعة الثورات، وسرُّ كل شيء حقير وكل شيء عظيم على هذه الأرض.

وما أكثر حكايات الفلوس وأصحاب الفلوس وعديمي الفلوس في أفريكيا، متَّعكم الله بالفلوس الحلال وجنَّبكم شر الفلوس الحرام.

الغروب ... وبعد الغروب

أفريكيا القديمة تتلاشى الآن وتختفي لتفسح الطريق أمام أفريكيا الجديدة. أفريكيا الصيد والقنص والغابات الكثيفة والرقص ملط زلط في طريقها إلى الزوال ... وأفريكيا الثورة والاشتراكية والعلوم الحديثة تأخذ طريقها الآن فتيَّة وقويَّة؛ لتحتل مكانها تحت الشمس. غير أن عملية التحويل تلقى عقبات أعلى من جبل المقطم ... وتصادف مطبات أعمق من البحر الأبيض! جماعة المنتفعين بأفريكيا يقاتلون الآن معركتهم الأخيرة! في سبيل الاحتفاظ بشيء ... أي شيء!

وهؤلاء المنتفعون أدنياء كما الضباع، حُقراء كما الجرابيع، أرذال كما الجراد المغير! ولقد حاربوا الثورة الأفريكية في البداية بالسلاح، فلما فشلوا لجئوا إلى الحرب في الظلام، وهم الآن تجار السوق السوداء، وزعماء عصابات التهريب والتهليب، الله يخرب بيتهم وبيت أبوهم، بيض كلهم هؤلاء اللصوص ومعهم أيضًا بعض العملاء الأفريكان أصحاب السطوة والنفوذ في الزمن القديم!

أحد هؤلاء أبيض ومن الشرق الأوسط اشترى مرةً كل مدينة أكرا بمائة جنيه لا تزيد، وكتب معاهدةً مع زُعماء القبائل يتعهدون فيها بحمايته من أي عدوان، مقابل ألف متر قماش كستور كل عام، وكسب الأبيض الفهلوي نصف مليون جنيه من بيع أراضي أكرا لأهلها الأفريكان! أحفاد هذا الأبيض النصَّاب يعملون الآن بجنون في التهريب، مقابل كل جنيه إسترليني يدفعون خمسة جنيهات أفريكية، عملية تكسير في ضلوع غانا الفتية، ومص دم من عروقها، ليس بالشفاعة ولكن عن طريق الغب مباشرة بالفم، ولا واحد مفجوع عاكم سلطانية طرشي بلدي الله عليها!

ولكن ... قبل أن يأخذنا الحديث ينبغي أن نحكي لكم قصة الثورة والثوار في أفريكيا. وما أحلى الحديث عنها وما أحلى الحكايات فيها وما أغرب وأعجب ما حدث ويحدث حتى

الآن! عندما اشتعلت نار الثورة في أفريكيا اشترك فيها الجميع، أغنياء يملكون الضياع ومعهم فلوس في البنوك، وعندهم حشَم وخدَم وخير الله كتير، ولكن لأن عين الإنسان فارغة ولا يملؤها إلا التراب، فقد ثار السادة الأغنياء ليغتنوا أكثر! فهم بحكم أنهم خدامون للسادة البيض، فلو انطرد البيض فسيكون هؤلاء هم السادة الجدد، وسيصبح الجميع خدامين عندهم، وبدلًا من المال وحده سيصبح عندهم المال والسلطة والعمر الطويل! ومع الأغنياء اشترك أيضًا أفندية بكرافتات ملونة وقماش إنجليزي مخطط، وغاية الثورة عندهم أن يتكلم الناس، وأن يكون لهم حق البغبغة بالكلام! وهؤلاء حلموا بالثورة في جنينة هايد بارك، وعلى سلم الجمعية الوطنية الفرنسية أيام الجمهورية الرابعة، وغاية الديموقراطية عندهم ... هي حرية الكلام، ولكن هؤلاء الأفندية نسوا، أو ربما تناسوا، أن حق الكلام يصبح في النهاية لمن يأكل أكثر ويعمل أقل! لأنه سيكون لدى هؤلاء فرصة للسهر والاجتماع والكلام، أما الفلاح الكفران الغلبان الذي يعمل في الحقل من النجمة لغروب الشمس ... هذا الفلاح لن يجد فرصةً حتى ... للاستماع!

المهم أن الثورة قامت، وقام معها كل الناس ... العاطل الذي يبحث عن عمل والفلاح الذي يبحث عن أرض، والأفندي الذي يبحث عن مكتب، والغني الذي يبحث عن سُلطة، مولد وكل الناس فيه، فلما نجحَت الثورة بدأ الخلاف بين الثائرين! كان في الثورة فريق يطالب بالثورة المستمرة، بتوزيع الأرض، بتوزيع المال، بتوزيع الفرص، بتوزيع العدل ... وكانت ثورة عبد الناصر الأفريكية العربية هي المثل الأعلى لهؤلاء الثوار، ولكن عندما بدأت الثورة في بعض بلدان أفريكيا تسير على هذا الطريق؛ انشق عليها الأغنياء في البداية، ثم بعد فترة خرج عليها الأفندية المثقفون! وهكذا اتلم المتعوس على خايب الرجا! واتلم عليها أيضًا كل إمعة، وكل صاحب منفعة! كل زعيم قبيلة يريد أن تبقى الأوضاع على ما هي عليه ... الناس تبقى عرايا، والرقص على ودنه، والجوع على ودنه، وكرسي الرئاسة والقداسة للسيد الزعيم!

وكل تاجر يشتري بقرش ويبيع بعشرة، وعنده من الفلوس مليون، وعند الآخرين برد وبلهارسيا وروماتيزم ينشر في المفاصل وفي العظام!

وهكذا أصبحت أفريكيا أفريكتين: واحدة ثار فيها الجميع، فلما نجحت الثورة وسكت الجميع اكتفوا بطرد الحُكام البيض ووضعوا مكانهم حكام سود، واكتفوا بطرد الأغنياء البيض، وسلموا البنوك للأغنياء السود! ولأن الحكام السود والأغنياء السود أولاد أصول فقد واصلوا العلاقة القديمة بالسيد الأبيض، وهكذا أصبح السود مندوبين عن البيض ... ليس إلا! والآن أصبح كل شيء على ما هو عليه، وكأن الثورة لم تقم وكأنها أيضًا لم تكن!

وكأنك يا أبو زيد لا رحت ولا جيت. ولكن هناك أفريكيا ثانية جديدة، الثورة فيها مستمرة، والثورة فيها على طول. وهذه الأخيرة تلقى متاعب ومصاعب ومؤامرات! ولكن الثورة فيها تتغلَّب دائمًا، وتهزم أعداءها دائمًا، وتنتصر على طول الطريق؛ لأن الثورة فيها ليست موضة وليست بدعة، ولكنها مطلب الجماهير الحافية، والجماهير التعبانة، والجماهير التي نضجت على نار الفقر وعلى نار القهر!

واحد من دول الْتقيْت به في بلد أفريكي متحرر، زعيم قبيلة كان يعيش طول العام في العاصمة، ينام في قصر مفتخَر، ويأكل حمام مفتخر، ويقربع ويسكي ويلعب قمار طول الليل، وبناته في لندن، وأبناؤه في نيويورك! ومرة كل عام يذهب إلى القبيلة، يرتدي الخرز ويرقص رقصة الحرب، ويجمع الإتاوة ويعود ينفق منها على نفسه في العاصمة وعلى عياله فيما وراء البحار! الزعيم الأفريقي الذي كان يجب أن يُحتذَى في نظره هو كازافوبو، الخائن ابن الخاينة رئيس جمهورية الكونغو ليوبولدفيل ... وهو زعلان وقرفان لأن أفريكيا لها تقاليد توشك أن تندثر، وهو زعلان لأنه رجل تقاليد، والجهل من تقاليد أفريكيا وينبغي الإبقاء عليه، والفطرة من أهم مميزات أفريكيا، وينبغي المحافظة عليها، الراجل الزعيم القبائلي السابق عقليته سياحية، فلو فرضنا وأصبحَت أفريكيا بلدًا أوروبيًّا كما يحلم الثوار، فما الذي يُغري الأوروبي على المجيء إلينا، وأي شيء يثير خياله لينفق عندنا الإسترليني والدولار؟! الراجل إذن ثائر ضد النظام الجديد، ولكنه ليس من الثوار الخطرين؛ لأنه هايف وجاهل وعقله مثل نعل الجزمة! إنه يريد في النهاية أن يحيط أفريكيا بسورٍ هائل، فلا إصلاح ولا تغيير ولا دياولو، ويجلب السواح من أوروبا، وكم هير يا خواجا، وجيت ون سيجاريت، وثانك يو، وكان الله بالسر عليم! وما دام هو سوف يقبض وسوف يصرف، وسيكون آخر مزاج وآخر انشكاع، فكل شيء في أفريقيا هادئ وعال والحمد لله!

ولكن أخطر أعداء النظام الجديد، هم السادة الأفندية الذين تلقوا قشور العلم في جامعات لندن! الأفندية الممصوصين الناشفين المعصعصين المريشين، وكلهم بنظارات طبية ولها شنابر! وهؤلاء ليسوا ضد الثورة ولكن ضد «أسلوب» الثورة. إنهم يحلمون بحديقة مثل هايد بارك، ومجلس عموم يتكلم فيه الناس كما يشاءون، جرائد تقول ما تريد، وهم في النهاية ضد الوضع القديم أيضًا، ولكن موقفهم هذا جعلهم من أشد أنصار النظام القديم، ولو نجحوا فيما يريدون لعاد النظام القديم بكل هيئته وكامل عُدَّته!

أفندي من دول، مسلول مثل حالي، ضبش لا يكاد يرى أبعد من طرف جاكتته، يتكلم بسرعة مدفع رشاش، ولعل عيبه الوحيد أنه يتكلم ولا يسمع، ولا يريد أن يسمع لأنه لا يعطي أحدًا فرصة الكلام!

أغرب شيء أن الأفندي إياه يعشق لومومبا ويحبه، لومومبا شهيد أفريقيا، لومومبا مسيح عصره. ولكن لومومبا الطيب يا حضرة الأفندي، قتله أعداؤه لأنه لم يقتلهم؛ لأنه اتبع أسلوب سيادتك، عاملَهم بالكلام فقاتلوه بطلقات الرصاص! ومع ذلك فالأفندي لا يريد أن يقتنع، إنه شاعر وليس ثائر، وهو لا يريد دولة حرة، ولكنه يرغب في قبر ويشبع عياط عليه!

ولكن ... لا خطر على الثورة الآن في أفريكيا، إنها أقوى من أعدائها. وجيل الثورة الجديدة يتكون الآن، وعلى أكتافهم ستقوم أفريكيا الجديدة، وسيظل ثوار أفريكيا يحملون السلاح لحماية الثورة حتى يتولى الجيل الجديد مسئولياته. واحد من هؤلاء — أبناء الثورة الأفريكية — اقتحم عليَّ الحجرة في فندق الأمباسادور بأكرا وجاء يناقشني في الوحدة الأفريقية، إنه يحلم بقطارٍ سريع يقوم من القاهرة إلى كيبتاون في جنوب أفريقيا، ثم يخترق بطن القارة إلى كانو ولاجوس وأكرا، ثم يعبر الصحراء الكبرى إلى المغرب والجزائر، ثم يعود من جديد إلى القاهرة! ويحلم بعملة أفريكية واحدة، على وجهها رسم للأهرام كأثر أفريكي شهير، وعلى ظهرها رسم للتمساح لأنه حيوان أفريكي، ولأن أفريكيا قارة البحيرات والأنهار! ويحلم بجامعة أفريكية للسياسة في القاهرة، وجامعة أفريكية للفنون في أكرا، وجامعة أفريكية للعلوم في الجزائر، وجامعة أفريكية للفلسفة في الخرطوم! ويحلم بجيش أفريكي قوي يحرس شواطئ القارة الشمالية من أوروبا لأنها العدو التقليدي، ويحرس شواطئ القارة الغربية من أمريكا لأنها العدو الجديد.

الولد الثائر العجيب لا يحلم ولا يتنبأ، ولكنه يقرأ الغيب، وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح. إنه الآن في العشرين من عمره، وستتحقق هذه الأحلام كلها قبل نهاية القرن العشرين، وسيكون الثائر العجيب وقتئذٍ في الخمسين وربما في الخامسة والخمسين! وفي خلال ثلاثين عامًا ستُصنَع الأعاجيب، لا تندهش أيها الأخ، فمنذ عشر سنوات ... ربما أقل، لم يكن في أفريكيا كلها سوى عبد الناصر. ولكن هذا الرجل وحده استطاع أن يصنع المعجزات. منذ عدة سنوات مثلًا كان ملك المغرب في المنفى، وكان لومومبا موظفًا في مصلحة البريد، وجومو كينياتا في السجن، وبن بيلا في السجن، ونيريري وسيكوتوري ونكروما يكافحون، بعضُهم في الخارج وبعضهم من خلف الأسوار. وكان المسافر من أكرا إلى القاهرة لا بد أن يمر أولًا بلندن، والمسافر من القاهرة إلى كوناكري لا بد أن يمر أولًا بباريس، وكان لا بد من تأشيرة مرورٍ إنجليزية أو فرنسية أو بلجيكية أو إسبانية أو إيطالية لمن يريد الدخول في أفريكيا، ولم يكن لنا عملة ولكن التعامل بيننا كان يتم بفلوس الغير، ولم تكن لنا أعلام ولا أناشيد، وكان أغلبنا صياع في لندن وفي باريس، وكانوا يضحكون علينا فيقولون لنا

إننا مواطنون مثلهم، لنا نفس الحقوق وعلينا نفس الواجبات، وكنا نسافر إلى الوطن الأم لندن، فنكتشف هناك على ضوء لمبات النيون أن واجباتنا ثقيلة وحقوقنا مفيش، وأننا أحرار نستطيع أن نعمل في أية مهنة تروق لنا من أول كناسين في الشارع إلى كمسارية في الترماي!

مع الولد الثائر العجيب، أفندي نص عمر في سن حضرتنا، كاتب وأديب له روايات وقصص، داير لف أوروبا كلها، وعاش في لندن أغلب حياته، وذهب إليها أول الأمر ليتعلم، والتعليم في جامعات لندن بدون فلوس، التعليم بالمجان. فَطار عمنا فيكتور إلى هناك، ولكنه اكتشف هناك أن التعليم صحيح ببلاش ولكن الحياة غالية، ولكي تتعلم لا بد وأن تكون من الأغنياء، وفكَّر فيكتور أن يعمل ويتعلم، فاشتغل عامل منجم في اسكتلندا. ولكن العمل في المنجم شاقٌّ وصعب ولا يمكن أن يترك لك فرصةً للتعليم ... فهجر المنجم واشتغل شيَّالًا في ميناء ليفربول، وانكسر وسط عمنا فيكتور على رصيف الميناء. واضطر إلى النوم في حجرة باردة مع عشرين أفريكيًّا مثله، يشربون الروم ويفتحون المطاوي قبل النوم، ويسبون الدين والدنيا، ويشخرون وينخرون، ويستشهدون بدون سبب معلوم!

الغلبان المسكين فيكتور ذهب إلى لندن يتعلم ويتأدب وينشر إنتاجه على العالمين! ولكن ها هو يتدحرج مع الأيام إلى عامل منجم وشيال في الميناء وكناس في الشارع، ثم صايع يجلس طول النهار على المقهى وطول الليل يتسكع في حي سوهو الشهير. ثم ها هو في النهاية يصنع ما هو أسوأ؛ إن له جسمًا فحلًا كتور، وقوة باتعة ليس لها نظير، وستات أوروبا يحبون الرجل الحمش القوي العنتيل! وسيصبح عمنا فيكتور روميو بالأجر، راجل وله عدَّاد مثل التاكسي، وارتضى عمنا فيكتور حياته الجديدة، ولكن ست غنية معجبانية وقعت في عمنا فيكتور فعرضَت عليه أن يتحول من أُجرة إلى ملَّاكي مقابل خمسين جنيهًا إسترلينيًّا كل شهر للفسحة والمزاج!

وعاش عم فيكتور سنوات مع الست ثم ركن في الخط، وسقط مريضًا بالسل، وفي مستشفى لندن عاش شهورًا يعاني من المرض ومن الوحدة ومن الفقر، انتظرَته الست المعجبانية شهر وشهرين ثم اشترت راجل آخر ملاكي واختفَت عن الأنظار!

الأديب القديم في عمنا فيكتور عاد يتحرك في داخله وهو على سرير المرض وجرثومة السل تأكل في صدره.

وبعد عامٍ كامل خرج عمنا فيكتور من المستشفى برواية ستُحدث هزَّةً في أفريكيا اسمها: الغروب. وعندما اشتعلت الثورة في أفريكيا حمل عزاله وجاء على عجل ليأخذ

مكانه في صف الثوار. وقبل أن يغادر لندن ذهب إلى هايد بارك، ووقف يخطب في مجموعة من الإنجليز السكرانين، وشتمهم ولعنهم وبصق عليهم، وصاح واحد سكران من بين المستمعين: ولماذا جئت إلى هنا ما دامت بلادنا لا تعجبك؟

وقال عمنا فيكتور: لقد جئت إلى هنا لأنكم قلتم لي إن لندن هي وطنك الأم.

وصاح الرجل الإنجليزي السكران: وهي فعلًا كذلك ... وقال عمنا فيكتور: نعم هي كذلك لكن اكتشفْت للأسف أنها أمٌّ زانية وتستحق القتل!

عمنا فيكتور الآن في أفريكيا يشارك في بناء الثورة، وهو محررٌ كبير في مجلةٍ كبيرة، وروايته الجديدة صدرَت هذا العام واسمها: بعد الغروب.

وبعد الغروب قصةٌ أفريكية حلوة، بطلَتُها بنت اسمها ديانا، سحبها رجل سمسار أفريكي من الغابة لتعمل في بيت خواجا على شاطئ المحيط. وكان الخواجا عجوز في الستين من عمره، وأرمل ماتت مراته منذ عهدٍ طويل، وله أبناء خمسة، أربعة منهم رحلوا إلى أوروبا، والخامس أبله ومعتوه ويعيش مع الرجل العجوز. والرجل العجوز ألفي ومبسوط وحاجة تمام، وهو هاوي رماية وصياد طيور ماهر، وتاجر له أكثر من فرع، وسفرياته كثيرة وطويلة يقضيها متجولًا للتفتيش على فروعه في نيروبي وسالسبوري وإليزابيث فيل!

وذات مساءٍ انفرد الولد الأبله بالبنت الحلوة وفتك بها، فلما احتجَّت ألقى بها في حجرة مظلمة وأغلق الباب عليها بالمفتاح. فلما عاد الرجل العجوز بعد أسبوع أطلق سراحها وطيب خاطرها ونهر ولده الأبله المعتوه. وبعد أيام دعاها الرجل العجوز إلى حجرته وفتك بها هو الآخر، ولم تجد بُدًّا من الهرب من قصر الخواجا إلى الشارع بدون هدفٍ معلوم. ولكن المدينة كانت مثل قصر الخواجا، كافرة وجاحدة وملعونة، وسرعان ما سقطَت البنت الحلوة في يد عصابة سحبتها إلى الميناء، إلى بيتٍ أنيق ورشيق. وبعد أن كانت البنت للخواجا وولده المعتوه، أصبحَت للجميع. ولكن الأمور تغيرَت تمامًا، فبدلًا من أن يتم الأمر بالعافية وبالمجان أصبح كل شيء يتم بالذوق وبالفلوس!

وذات مساءٍ اكتشفَت البنت أن الخواجا العجوز من زبائن البيت. وبعد أن كانت خادمته أصبحَت عشيقته. غرق الرجل العجوز في حبها للآذان، ولأنه كبير وصاحب نفوذ فقد أصبحت له وحدَه، ومنحها هذا الامتياز فرصة للفسحة وفرصة للسفر.

وذات سفرية الْتقَت بشاب كنخلة جوز الهند قوي كالفيل، عذب كماء النهر. الولد الأفريكي العظيم كان واحد من الذين يعملون للثورة، ولم يكن الولد يعرف سر البنت،

ولم تكن البنت تعرف سره. وعندما اشتعلت الثورة اختفى الشاب أسابيع طويلة، وعند أول لقاء مع البنت الحلوة اضطر أن يكشف سره لها، ولكن البنت احتفظت بسرها فلم تكشف عنه الغطاء!

وذات مساءٍ كان الخواجا عندها وكانت حفلة صاخبة ... ومع الخواجا كل أصدقائه وأحبابه ومدير البوليس ... ومحافظ بنك باركليز، وشيخ تجار المدينة، ودار الحديث حول الثورة والثوار، والخمرة حلوة تفك الألسنة المعقودة، وتفتح الصدور المطوية على الأسرار! ومدير البوليس رأسه خفيفة وعقله أخف. أخرج من جيبه ليستة طويلة بأسماء مائة شاب ستقتلهم السلطة اغتيالًا في الظلام. وارتاعت البنت الحلوة فقد كان اسم حبيبها في كشف الموت إياه. وسكرت البنت وغنَّت ورقصت معهم.

وفي الفجر تسللت هاربةً ومعها الكشف إلى مَقرِّ الحبيب. لقد هربت البنت مرة أخرى ولكنها في هذه المرة لم تهرب إلى الشارع، ولكن إلى الثورة، لقد وجدت نفسها أخيرًا مع الثوار.

والحدوتة التي حكيتها لكم هي مجرد كروكي للرواية الأصلية. لأنني لو لخَّصْت القصة بأمانة لاحتجتُ إلى عشرة فصول من هذا الكتاب. وحالُ الأدب في أفريكيا لا يسرُّ أحدًا؛ لأن عدد القراء قليل. وفي العالم الغربي مؤامرة صَمْت على الأدب الأفريقي، فلا اهتمام ولا احتفال، وفي أوروبا يحتفلون بأدب الدولة الخنفسة إسرائيل، ولكن أدب قارة بأسرها لا يهم! وتوزيع الصحف في أفريكيا وحش؛ لأن الطُّرق وحشة، والمواصلات أوحش بكثير! والفن الأفريقي ممتاز، ولكن لا أحد يسمع به ولا أحد يسمع عنه؛ لأن الاتصال حتى بين الأفريكان محدود، فلا مَعارض ولا جوائز ... ولا يحزنون!

والدين في أفريكيا قُشور؛ لأن الدين أدخله مبشرون كذابون نصابون، جاءوا على مراكب كانت مهمتها الأولى صيد العبيد! ولذلك فالسيد المسيح والسيدة العذراء سود في أفريكيا؛ لأن المبشرين النصابين خدعوهم فقالوا إن المسيح والسيدة العذراء من الزنوج!

والأفريكي يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد لا ليصلي ولكن ليرقص، والمبشرون في الغابة يصنعون كل شيء ضد المسيح وضد الدين! وهم وراء كل الثورات المضادة، وهم منظِّمُو كل حركات التمرد ضد النظام الجديد. وتحت ثوب المبشر الفضفاض ستجد منشورات وأسلحة ودولارات ومشاريع ومؤامرات، وانقلابات، وصفقات ليست لحساب الرب، ولكن لحساب بنك إنجلترا ومخابرات الأخ سام!

وأنا أقول «الأخ» سام؛ لأنه لم يَعُد عمًّا لأحد، فقد قلَّت قيمته وسيمته حتى أصبح أخًا ... ولا يزيد!

والمسلم الأفريقي تقرأ عليه السلام فيبكي بكاء الأرملة التي مات سبعها في معدية على النيل! ويسمع آيةً واحدة من القرآن فيظل يبكي طول الليل بدون أن يفهم حرفًا مما يُقال! ويصلي في الطريق العام؛ لأنه لا يُوجَد مسجد واحد في بعض العواصم الكبرى. لم يسمح المستعمر الأوروبي الذي أغلق أفريكيا إلا لنوع واحد من المبشرين. ومنع المسلمين من الحج، ونشر حملة تخريفٍ ضد العرب، صورهم في صورة خطافة ونخاسة وتجار عبيد!

والخطة التي فشل في تنفيذها السيد الأبيض زمان، تحاول إسرائيل الآن تنفيذها بأمواله ولحسابه! وخطة الدولة الخنفسة إسرائيل أن تمزق أفريكيا إلى أفريكتين: أفريكيا ما وراء الصحراء، وأفريكيا ما قبل الصحراء. أفريكيا البيضاء وأفريكيا السوداء. أفريكيا الزنوج وأفريكيا العرب. أفريكيا العبيد وأفريكيا تجار العبيد!

وقد وجدت الدولة الخنفسة في أفريكيا بعض الآذان تَسمَع، وبعض العقول تُصدِّق. ولكنها كلها آذان وعقول عميلة. وهناك للأسف قوى وطنية في أفريكيا ولكنها مخدوعة، ولكن هذا يستلزم مِنَّا جهدًا أشد وعملًا أكبر. وقد كانت الثورة المصرية هي أكبر دعاية للعرب في أفريكيا. وصورة عبد الناصر تحتل مكانها مع صور لومومبا وكينياتا ونيريري ونكروما وسيكوتوري والمؤدب كيتا.

وكانت الثورة الجزائرية شهادة أخرى لأفريكيا العربية ... وتجربتنا الثورية محل دراسة كل ثوار أفريكيا وأحزابها التقدمية. وما من ثائر في أفريقيا إلا وله صلة بالقاهرة. وما من ثائر إلا ومعه صورة يحتفظ بها في أعز مكان، صورة له مع عبد الناصر في حديثٍ عن الثورة والثوار.

ولقد بدأنا حديثنا عن الغنى والأغنياء، ولكن الحديث على رأي زكي مبارك ذو شجون. والمال حلو يا جدعان، ولكن توزيعه على الناس أحلى. والسلطة مغرية، ولكن رد السلطة إلى الشعب أكثر عدلًا. وأفريكيا الآن تغلي على نار من أجل توزيع الفلوس، ورد النفوذ إلى أهله الطبيعيين والشرعيين. وأصحاب النفوذ والفلوس التقليديون يحاربون الآن معركتهم الأخيرة، معركة ضد المنطق وضد الطبيعة وضد الحياة نفسها، ويا بخت من يقف مع الثورة في أفريكيا، ويا حسرة من يقف ضدها. ستأكله الثورة وتهضمه وتبصقه نفاية على الطريق.

يا حضرات الكويرة ... ويلٌ لكم من أفريقيا

بعد العلوم والفنون والسياسة والكواسة والحواسة أكتب لكم من جديد عن فرع جديد في أفريكيا. ولكن قبل أن أبدأ لا بد من شرح الكلمات الجديدة التي أرجوكم رجاء واحد شحط عاوز يتعين تمورجي في القصر العيني، أرجوكم أن تحفظوها وتتذكروها وتتعلموها، وللعبد لله الأجر والثواب عند الله.

أول هذه الكلمات هي الكواسة، والكواسة من كويس، ويُقال: فلان رجل كويس ... أي: رجل طيب، أو رجل عبيط. ويُقال: هذا الشيء كويس كتير، هذا إذا كان المتكلم خواجا مضروب في دماغه نازل من مركب يتفرج على بور سعيد!

الكلمة الأخرى هي الحواسة من التحويس، والتحويس بمعنى اللف والدوران، ويُقال: فلان حوَّاس ... بمعنى: فلان لفَّاف أو دوَّار، ولكن هذا لا ينطبق على حوَّاس بتاع الفن الشعبي، والحواسة أيضًا في بعض القواميس من الحواسة، ويُقال: يا حوستي ياني، هذا إذا كان المتكلم سيدة من المدبَح مات سبعها في معركة بالسكاكين. ويُقال: يا حوستي يا خواتي، هذا إذا كان المتكلم أُم مات ابنها غرقًا في بحر شبين.

بعد هذه الديباجة يا سادة يا كرام أعود بكم إلى الحديث عن أفريكيا، وفي فرعٍ أعتقد أنه يهم الكثيرين والكثيرات، وهم حضرات الستات وحضرات البنات، والتاء هنا هي تاء النسوة!

حديث اليوم يا سادة عن الرياضة في أفريكيا. ولن أخدعكم ولن أضحك عليكم، سأقول الحقيقة كاملة، وأرجو أن يستفيد منها حضرات المشرفين على الرياضة في بلادنا؛ لأن أفريقيا منا وعلينا، ويومًا ما سنلاعبها وتلاعبنا، ويا ويلنا إذا لم نأخذ حذرنا وإذا لم نستعد لها من الآن! أول شيء أفريكيا في السباحة برة، ومع إن أفريقيا قارة الأنهار والبحيرات، إلا أنها أنهار وبحيرات قاتلة ... السابح فيها مفقود، والواقف على شاطئها

مفقود برضه! التماسيح هناك تتلعبط في الماء كما السمك البلطي أو السمك الشبار — بلُغة أهل بورسعيد — عندما يتلعبط في ترعة بلدنا! وسيد قشطة نائم على وش المية كما قنطرة ترعة سبك كفر القرنين منوفية! وفي السودان مثلًا سمكة غلبانة ومسالمة اسمها العجلة، وزنها مثل وزن الفيل، ولو طبقت في واحد سباح مثل أبو هيف فـ ... يعوض الله! وفي أنهار الكونغو أحناش، يعني: ثعابين سامة، وقرصتها وقرافة البساتين! لذلك لا يسبح الناس هناك، حتى الناس الذين على شواطئ المحيط لا يسبحون؛ لأن المحيط غدار، تنزل فيه فتغطس ولكن لا تقب ولا تظهر لك جثة! السباحة في أفريكيا إيدك منها والأرض. وسنظل نحن الأبطال في العالم وأبطال كل العالمين، حتى لو اكتشف العلماء سباحين في كوكب الزهرة! وفي الملاكمة كفانا الله شرها مستوانا كهواة مش أبطال، ولكن كمحترفين يختلف الوضع! في نيجيريا ولد ملاكم محترف اسمه تيجر، وتيجر يعني النمر، وهو نمر فعلًا ومفترس صحيح! قتل حتى الآن أكثر من خمسة ملاكمين لهم عضلات ولهم قبضات كالحديد! وفي جامبيا أيضًا ملاكم محترف اسمه دوجو، لو لكَش واحد مثل حضرتنا فأنتم مدعوون جميعًا لتشييع جنازتي اليوم التالي بإذن الله! ولو لكَش واحد ملاكم فهو واقع على أرض الحلقة بلا كلام! وليس اعتباطًا أن كل أبطال الملاكمة في العالم من الزنوج. بُنيان الزنجي كبناء الهرم الأكبر. حاجة تسرُّ العين والفؤاد وتشرح الصدر الحزين! عضلات ولا الكورة الأنبوبية، لو رآها ولَد كوِّير مثل رضا لشاط فيها على الزاوية الشمال على طول! هذا إذا كان الزنجي رجل غلبان وفي حاله مثل حضرتنا، فما بالك بالرجل الملاكم الذي يأكل عيشه بعرق العضلات وقبضات اليدين! وفي الجرْي حدِّث ولا حرج. في أفريكيا ناس ناشفين مسلوعين، رجلهم ولا عيدان الملوخية، ولكن صلبة ولا حديد المسلح، والواحد منهم يجري ولا الغزال. واكيبا بتاع الحبشة بهر العالم كله برجليه، وميدالية ذهبية مضمونة لسيادته في أي دورة وفي أي مهرجان. وفي تونس أيضًا عداءون الله عليهم، الواحد فيهم يجري مشوار من هنا لِبَنها. وفي الكاميرون عدَّاءٌ مشهور اسمه أوجا ... ومعناها النار، وهو يجري الميل الواحد في سرعة النفاثة الجديدة ... وفي كرة السلة العيال طوال أطول من نخلة، ولكن بلا فنٍّ على الإطلاق، ولو اكتسبوا الفن فيا ميت حلاوة عليهم، عندئذٍ سيكسبون حتى أمريكا، وحتى فرنسا! ولكن كرة القدم هي التي أريد أن أنذركم يا سادة يا كويرة وأن ألفت نظركم! في غانا ولد حارس مرمى لا تدخل مرماه ولا طلقة مدفع. كما الحيطة يسد الجون فلا تمر منه كورة ولا تشرد! ومع ذلك ضربناه في دورة طوكيو خمسة أهداف ولا أدري كيف حدث هذا! ولذلك ضرَب هو الآخر الشيخ طه ضربةً تكسَّح

بسببها عامًا طويلًا، ولطم الأهلي على خدَّيه بسببه! الولد الغاني غلبان وكفران وحاله عدم، ويحرس مرمى فريق الريبابليكا في أكرا، تفرجْت عليه مرتين، مرة هزَم فريقه الفريق المنافس خمسة أهداف حتة واحدة، واتغاظ العيال بتوع الفريق المنافس ونزلوا ضرب في الحكم ثم في لعيبة الريبابليكا! فلما زاط الجمهور في المدرجات، انهال اللعيبة ضربًا على المتفرجين، وطار كل الناس، ومحسوبكم أمامهم، وعرفْت لحظتها أن طريقة لعبنا تختلف عن طريقة اللعب هناك. فهنا الجمهور هو الذي يضرب اللعيب. وهي طريقة حلوة ما دمت أنت من الجمهور. ولكن هناك اللعيبة هم الذين يضربون، ولذلك يذهب بعض المتفرجين خلال المباريات بزي الكورة؛ حتى إذا حصلت العركة ووقعت الواقعة انضموا للفريق الضارب وهات يا عزق في مخاليق الله. وشاهدْت مباراةً ثانية أشهد أنها حلوة وأنها طعمة، ومستوى اللعب كما ماتش حامي بين الزمالك والإسماعيلي، وفازت فرقة ريبابليكا بأربعة أهداف لمفيش، أحرزها كلها الواد الإنسيد الشمال، هو ولد عفريت أزرق الناب، عصير من رضا الإسماعيلي وجاكسا السوداني، ويستطيع أن يلعب في ريال مدريد ويكسب الشهرة والفلوس والذِّكر الحسَن. واستاد أكرا عظيم التنسيق عظيم الاتساع. وبه ساعة أوتوماتيكية، ولوحة بالكهرباء لتسجيل النتائج، وميكروفون للإرشاد والتنبيه. والأبواب محكَمة لا تسمح بالمكاسب والتهليب! تذاكر وأبواب دوَّارة كما أبواب جنينة الحيوانات. وعلى كل بابٍ عسكري واحد ليس على رأسه طاسة وليس في يده شومة. وفي الداخل لا يُوجَد عساكر على الإطلاق، ولا واحد شحط مشمرخ شايل قفة باستيليا لترويق الدماغ، ولا جرادل كوكاكولا، والتشجيع حامي ولكن في حدود المعقول. والدرجة الأولى بنص دستة شلنات، والمدرج خلْف المرمى بشلن واحد. والتحكيم على باب الله، شُفت واحد غلبان مهزوز ظَلَّ يتخبط في أحكامه، وفي النهاية ضربه العيال اللعيبة وضربه الرجال المتفرجين! وللصحافة مكان لا ينحشر فيه واحد صايع ولا واحد ضايع، والصحافة الرياضية قوية ومحترمة ومقروءة غاية الانقراء! ولكن اللعيبة يا حسرة غلابة ولا لعيبة بني سويف، فقراء ولا بتوع السواحل، آخر فلَس ولا لعيبة كفر الشيخ. الواد حارس المرمى العظيم يصلح لحراسة مرمى البرازيل، تكلمْت معه بعد المباراة وتكلم معي أيضًا، وصوَّرتُه وشكرني، وطلبت منه الحضور إلى فندق الأمباسادور لنتبحبح في الكلام ونتبغبغ، فطلب من العبد لله خمسة شلن ثمن التاكسي وعلبة سجاير عشرين إذا أردْت منه الحضور والكلام! وتصوَّر لو واحد صحفي أجنبي طلب من صالح سليم أو حمادة إمام أو شحتة الحضور إلى فندق سميراميس، فطلب واحد منهم ربع جنيه فكة ثمن علبة بلمونت وتاكسي من الدقي إلى

ميدان التحرير؟ أنا لا أتصور أن واحد من الكباتن بتوعنا يجرؤ على أن يطلب مثل هذا الطلب الغريب! ولكن يبدو أن الواد حارس المرمى الغاني على الحديدة، رغم أنه موظف على الآلة الكاتبة في شركة وله مرتَّب ٢ جنيه كل أسبوع.

وفي غانا فرقتان قوميتان والباقي على باب الله، كوتوكو وريبابليكا، ومنهما يتكون الفريق الغاني، ومن ورائهما يسترزق الاتحاد الغاني وينفق على الجميع. ولكن لا رعاية ولا عناية باللاعبين. ولو عرف العيال بتوع مصر كم هم محظوظين وكم هم متدلعين وكم هم متبغددين لحمدوا الله وشكروا فضله وباسوا أيديهم بطنًا وظهرًا على النعمة والرزق الوفير! وأشهر لعيب مصري في غانا هو رأفت كابتن الزمالك، وولد تاني وصَفُوه ولكنهم لم يتذكروا اسمه، قالوا الولد القصير أبو رجلين مقوسة كما حديد النبلة! ربما هو محمود حسن لعيب الترسانة، الذي اختفى بدون سببٍ معلوم! ولقد سمعت عن رأفت من ناس أغنياء مبسوطين في فندق الأمباسادور، وسمعت عن رأفت من ناس مستوظفين في الحكومة والشركات، وسمعت عن رأفت من ناس ضباط في الجيش، وسمعت عن رأفت من ناس فقط في مقاهي وبارات أكرا، باختصارٍ سمعت عن رأفت من الجميع! ولكن غانا كمستوى لا تزيد عن مستوانا. هي في نفس الخط البياني معنا ومع المغرب وتونس والسودان. ساعات في السما وأيام في الحضيض. وهي تلعب بطريقتنا وبأسلوبنا، وشعارها هو الحكمة الأبدية أن الله تعالى خالق الكون ورافع السموات بغير عمد ترونها ومُدخل الكورة إلى الشبكة ... وإذا أراد فلا رادَّ لإرادته، ولكن إذا كان الله لا يريد فلا شيء يشفع ولا شيء ينفع، ولا شحتة ولا الشاذلي ولا خنتو بتاع ريال مدريد! ولكن في أفريكيا ناس تلعب بالكورة كما يلعب راجل ذئب ببنت ساذجة، كما يلعب واحد مليونير بالفلوس! في توجو فرقة تأكل منتخب مصر وهي نايمة. وفي جامبيا فرقة تأكل فريق البرازيل. وفي مالي فرقة لو اشتركت في كأس العالم لأكلت كل الفرق ... حتى فريق البرازيل. الولد دي ستيفانو العجيب أبو رجل بلاتين قال مرة عن عيال مالي: إنه إذا كان المستقبل في الكورة لأحد ... فهم الزنوج. وأقوى أمل للزنوج هم عيال مالي! أنا نفسي تفرجت على فريق مالي واندهشت كيف يكون مثل هذا المستوى موجود ولم نسمع به ولم نتفرج عليه، ولماذا نستجدي فريق البرازيل وفريق لشبونة مع أن فريق مالي أعظم وأقوى، وعنده من فنون الكورة ما ليس موجودًا في أي فريق. الواد السنتر هاف بتاعهم ذكرني بالساحر بوشكاش أيام عزِّه! الواد يشوط الكورة نحو اليمين فتتجه نحو الشمال! وقد يقول قائل: وماله، إن عندنا من هذا الصنف كثير، هشام يَكَن يشوط في المرمى فيسدد في المتفرجين، وحسام حسن يشوط لزميله فتذهب

الكورة للخصم، وأنا أقول: نعم هذا صحيح، عندنا الكورة كالبورصة، يوم في هبوط ويوم في صعود، وكما البورصة ترتفع الأسعار وتنخفض بدون سببٍ معلوم، كذلك في الكورة، يرتفع المستوى ويهبط دون سببٍ معلوم، ولكن الفرق بين حسام حسن مثلًا ولعيب مالي، أن حسام حسن عندما يسدد في الشبكة، فهو صادق النية والعزم في أن تذهب الكورة للمرمى، ولكن على رأي سامي البارودي: صحَّ مني العزم والسيف نبا! ولذلك تخيب الكرة وتتجه نحو المتفرجين. ولكن لعيب مالي يسدد نحو المدرجات فتذهب إلى المرمى. والكورة فنٌّ له أصحاب وناس تتفنن وناس تتحنجل ... وحضرات اللعيبة بتوعنا من طبقة المتحنجلين! السبب يا حضرات الكويرة أن الجو الكروي في أفريكيا هو نفس الجو الكروي الذي كان موجودًا أيام حسين حجازي ومختار التتش. جو هواية ولا شيء سواها، واللعب هناك لوجه الرحمن الرحيم! النوادي هناك غلبانة وكفرانة ولا تستطيع أن تعطي اللعيب ثمن صندوق دخان ماتوسيان ودفتر بفرة! وعندما يفقد الإنسان كل شيء وتبقى الهواية فقط فإن المجال للاسترزاق أو للتشبيح في الكورة، مثل التي رقصت على السلم، مثل التي فقعت بالصوت في الغابة الاستوائية! نطلع مرة رابع دورة طوكيو، ونخرج من برة برة في دورة برازافيل، ونهزم النمسا مرة، وننهزم من هولندا بلد السمن واللبن والحليب! وهكذا أيضًا يكسب الزمالك الدوري العام ويخرج من الكأس في أول لقاء، والسويس الرياضي ينافس على الكأس ويهبط من الدوري الممتاز، وأنت لا تستطيع أن تحدد هل سيكسب فريق مصر أم سيخسر، وأنت لكي تحدد النتيجة فلا بد من الاستعانة بالجن والعفاريت الزُّرق! ولكنك في بلدٍ مثل مالي مثلًا، فأنت تستطيع أن تحدد بالضبط ماذا سوف يحدث له في أي مباراة! فإذا كانت المباراة مثلًا معَنا أو مع غانا أو مع السودان. فمالي هي الكسبانة بإذن الله. وإذا كانت المباراة مع إنجلترا مثلًا، فقد يتعادل الفريق وقد يفوز. وإذا كان اللعب مع البرازيل، فهنا لا تستطيع أن تتنبأ، فقد يتعادل وقد ينهزم وقد يفوز! ذلك أن فريق مالي له مستوى، وله مستوى لأن له خطة، ولكن يبدو أن مالي ليست هي البلد الوحيد الخطير في الكورة. أنا التقيت برجُل في لاجوس مندوب شركة تشتري جوز الهند من أفريكيا، مهنتُه تُحتِّم عليه المرور عبر أفريكيا، وهو نفسه زمان كان لعيب كورة في بلده. الرجل رغم سِنِّه تبدو عليه الصحة والقوة التمام! وهو كله في حجم الضظوي، وصوته يشبه تمامًا صوت أسد! وهو مغرَم صبابا بالكورة، وعاشق لها ولا عشق جميل للست بثينة! وهو من أجْل مباراة يترك صفقة ويهرب، ومن أجل الكورة يستقيل! الرجل الخبير اللعيب القديم قال لي: في أفريكيا فريق كورة أقوى ألف مرة من فريق مالي. فريق

أنجولا مثلًا أقوى بكثير من فريق مالي، ولكن غير مسموح له بالخروج، وغير مسموح لفرق أفريكيا بالدخول هناك. وكباتن أنجولا يلعبون في نوادي لشبونة وبملاليم. أزيبيو ملِك اللعبة في البرتغال ليس أحسن لاعب في موزمبيق، ولكن هناك لعيبة أحسن منه ألف مرة، ولكن بعضهم هارب من وجه السلطة، والبعض يلعب تحت القهر والاضطهاد! وفي بلدٍ اسمها بلمفنتين في جنوب أفريكيا شاهَد الرجل الخبير مباراة ليس أحلى منها ولا أطعم. الكورة تتدحرج دائمًا على الأرض، والمباصات مرسومة، وهات وخذ بين الجميع، وكلهم وقت اللزوم أعظم دفاع، ووقت اللزوم أعظم هجوم! مباراة لو انتقلت للعالم لانبهر الناس وسجدوا لعيال بلمفنتين مفيش كلام! ولكن لأنهم سود يا عيني محظور عليهم الشهرة، وممنوع عليهم الفلوس. وللسود دوري خاص واتحاد خاص أيضًا. ولكن دوري البيض هو المشهور وهو الكسبان، واتحاد البيض هو الذي يسافر للخارج ويجلب ما يشاء من الفرق بالفلوس! حتى في الكورة فيه سود وبيض يا جدعان. ولد من دول أسود ولعيب، ويلعب في بلد الجواهر والعواهر جوهانز برج، ولد محاور كما بوشكاش، خطَّاف أهداف كما الضظوي، شويط كما الشاذلي، سريع كما أبو السريع، الولد إياه أصبح له شهرة في جنوب أفريكيا ولا شهرة غاندي في الهند، أصبحت صوره تتوزع على المتفرجين سرًّا كما قِطع الحشيش على أصحاب المزاج. وخافَت حكومة جنوب أفريكيا من الفتنة فاعتقلت الولد الساحر وقذفت به إلى الصحراء؛ لأنه ليس مسموحًا لأحد من السود أن يكون مشهورًا أو محبوبًا من الجميع. وفي الكونغو ليوبولدفيل فرقة كورة كان يمكن أن تكون أشهر فرقة في أفريكيا لو كُتِب للشهيد الحبيب لومومبا أن يعيش؛ لأن كل العيال العظام في الفرقة خطفتهم فرق بلجيكا، وعندما حصلت الكونغو على الاستقلال عاد العيال إلى بلادهم، فلما اغتيل لومومبا وتشقلبت الأحوال، عاد العيال من جديد إلى فرق البلجيك!

والكورة هي جنون الناس في أفريكيا، كما هي جنون الناس في كل مكان، ولكنها في أفريكيا لها دلالة ولها معنى آخر عظيم. الكورة في أفريكيا لم تكن لعبة فقط، ولكنها كانت لعبة وسياسة، وكانت جبهة من جبهات المقاومة، وكانت سلاحًا حادًّا أكيد المفعول ضد السادة البيض، كانت في البداية وقفًا على السادة البيض. وكان مسموحًا للعيال السود في أغلب بلاد أفريكيا باللعب في فرق البيض، ولكن كانت الحياة في الملعب تسير على نفس النظام الذي يجري في الحياة، الواد الأسود يلعب ويحاور ويسجل، والواد الأبيض يشتهر ويقبض. فإذا طالب الأسود بحقوقٍ ضربوه وكسروه وركنوه في الظلام! فلما اشتد الإرهاب في النوادي اشتدَّت الرغبة في تكوين نوادٍ مستقلة للناس السود. وأول نادي كورة قام في

نياسالاند ودفع السود ثمنه عشرة آلاف من الأرواح، فعندما بدأ تكوين النادي رفضت السلطات إقامته، وفي الحال تكونَت لجنة للدعوة لإنشاء النادي، ولكن السلطة اعتقلت أعضاء اللجنة وزجَّت بهم في السجون، وفي اليوم التالي انفجرت المظاهرات في نياسالاند وتدخلت السلطة بالسلاح وسقط عشرة آلاف قتيل في يوم الأحد الحزين ... وهو يومٌ مشهور وله تاريخ في نياسالاند! وعندما تكونت نوادي السود كان محظورًا على البيض دخولها. ولم يكن لدى البيض أدنى رغبة في الدخول، ولكنها حركة من جانب السود للرد على قرار منع السود من دخول نوادي البيض! وخلف جدران نوادي الكورة تمت أخطر الاجتماعات ونُظِّمَت أعنف المظاهرات، وفي بعض البلاد تكونت أول خلايا النضال المُسلَّح في ملاعب الكورة. كانت الخلايا تحضر المباريات مع الألوف الكثيرة، وأثناء الزيطة والزمبليطة تجتمع الخلايا وتتلقَّى التعليمات وتتسلم السلاح وتخرج من ملعب الكورة للعمل! ورغم أن السلطة البيضاء اكتشفت الأمر إلا أنها لم تستطع أن توقف مباريات الكورة، أو تمنع الناس من الدخول؛ لأن وقف المباريات أو منع الناس معناه ببساطة ثورة شاملة في أنحاء البلاد!

أغرب شيء أن جميع الكويرة في أنحاء العالم لهم نفس الملامح ولهم نفس التفكير. واحد كوير عظيم التقيت به في أكرا، لعيب كان وردة زمانه ومكانه، منذ عشرة أعوام لا تزيد. الواد اسمه الأسد، وقد كان أسدًا بالفعل في الملعب. رأسه كانت كالصخرة، وقدمه كانت قطعةً من الماس، ثم اعتزل الملعب فجأةً وراح يسرح طول الليل على شاطئ أكرا، يشرب الطافية ومية النار ويترنح ويتدخل في أي نقاش، ويقدم نفسه لكل مَن يلقاه، واصفًا نفسه بالأسد وبالكابتن وبطل الأبطال! مسكين الأسد الذي تحول إلى لبؤة، يريد أن يفرض اسمه على الناس بالعافية. والأسد معذور؛ لأن اسمه كان يصنع مانشتات الصحف، وصورته كانت تحتل أبرز مكان. وكانت له أحاديث في الإذاعة وكان له معجَبون بالألوف، وكانت سهراته مضمونة، ومشاريبه بالمجان، والكوير السابق حاقد وناقم على كل الناس، ليس في أفريكيا الآن كورة، الكورة كانت زمان، أنا كنت أخطف الكورة من بين أقدام أي دفاع، وأنحرف ناحية اليمين وناحية اليسار وأشوط في الزاوية فتسكن الكورة الشباك. أنا قتلت مرةً حارس مرمى أبيض كان أطرى من عود الخص الدبلان، سددْت قنبلة في بطنه فاخترقت أحشاءه ومات في الحال رحمه الله! أنا غربلت مرةً كل فريق الواندرز الإنجليزي وأحرزْت هدفًا ببطن قدمي، ثم لفيت الملعب كله أتلقَّى تهاني المعجبين والمعجبات! والكورة عند الأخ دينجاهي مركز الكون ومحور الحياة وهي البداية والنهاية ... وأي لعيب في العالم

الآن صفر على الشمال، ولا يساوي ثمرة جوز هندٍ فاسدة. ودستيفانو أنا اتفرجت عليه ولم أنبسط، وبوشكاش نُص لعيب؛ لأنه يجيد اللعب بقدم واحدة، وبيليه طري وخرافة، ولو جاء في عصري لمات جوعًا في الشوارع، وهذه الأنا هي التي تتحكم في سلوكه وتحكم تصرفاته حتى الآن.

واحد كوير تاني مشهور ومعجباني وضاربه السلك، آخر فلَس وآخر نفخة، ولا تركي عثماني معه رسالة من الباب العالي إلى الناس الواطيين في المستعمرات. الواد قاعد على الكرسي مفشوخ ولا تاجر قطن كسبان وقاعد مجعبز في كازينو صفية حلمي! الواد عقله منفس كوابور جاز بريموس خسران، ومخه كموتور عربية العبد لله، والولد أصله صايع خرج من المدرسة وعنده من السن أربعتاشر، ورمَح في حواري أكرا يلعب الكورة كما القشاط! وعندما اكتشفوه صعد نجمه بسرعة وأصبح له معجبون ومسلفون؛ نسبةً إلى السلف عقبال السامعين. وهو جالس على الكرسي ورجليه مبحطرة وكل رجل في ناحية، وعلى اليمين بنت أشهد أنها كالشيكولاتة نستلة، عيونها حلوين كما عيون سعاد حسني، شعرها أكرت ومبروم كما البلح الأمهات، وعضلاتها ناضجة وصاحية كما عضلات الأخت فايزة أحمد، وصوتها كما صوت كمنجة في يد عازف غشيم! وعلى الشمال سيدة محمل، دمها خفيف كسِتِّنا ماري منيب، شعرها مصبوغ بالحنة، وعشان لا يغضب بتوع النحوي أقول: مصبوغ بالحناء. فقدَ لوْنه القديم ولونه الجديد كما لون شعر الست إلهام شاهين، وراح الولد يشرب كما عطشان يا صبايا ودلُّوه على السبيل! معه فلوس وعليه صحة ومشهور أشهر من مدينة أكرا، وجاهل أزلي، يستطيع بعد الاعتزال أن يصبح متعهِّد جهْل، ويستطيع توريده في سيارات لوري لمن يريد! سألتُه عن اللاعب الغلبان دينجا ففشخ بُقه بابتسامة رثاء ... وقال: لاعب فاشل، لو لعب معي لاعتزل من أول يوم! أنا أقول الحق، رأيت في الولد الجديد دينجا آخر ... ويومٌ قادم قريب سيعتزل هو الآخر، وسيفر مِن حوله المعجبون. وسيحكي عندئذٍ حكايات هايفة وتافهة ولن يجد من يسمعها، بعكس الرجل الغلبان دينجا؛ لأنه يتمتع رغم كل شيء بدم خفيف!

المهم هنا اللياقة والصحة والتفكير السليم ... ونحن نتناقل هنا الكورة بالساعة؛ لأن الكورة هنا كيف، والكيف مناقلة، واللعب حظوظ ومزاجات، ولعبة حلوة من رضا أبرك من عشرة أهداف، وتطويحة حلوة من حمادة إمام ونخسر المباراة، ولعبة ع الطاير من بتوع العجوز ولو دخلت حتى الكورة في مرماه، حلنجية العيال بتوعنا وحُواة وشاطرين وعيونهم مفتوحة وأولاد بلد بصحيح، ولكنهم لا يصلحون للكورة ولا تصلح الكورة لهم

... وأنا أتمنى على الله ولا يكتر على الله أن تُقام دورة أفريكيا مرة في بلدنا لنتفرج على الكرة الحلوة ونتعلم منها، أو نتفرج ونتحسر إذا كان التعليم قد أصبح بالنسبة لكباتن مصر العظام من باب المستحيل! وستُدركون عندئذٍ أننا أسرفْنا في خلع الألقاب على السادة اللعيبة، وأن المايسترو مثلًا لا يصلح إلا مايسترو لفرقة حسب الله، وأن النفَّاثة ليست إلا قطار دلتا قديم، وأن الثعلب ليس إلا بطة بلدي مريضة بالهرش، وأن الأهلي الذي هو مدرسة الكورة بالنسبة لأفريكيا ليس إلا مدرسةً لروضة الأطفال والعيال الصغيرين ... ولكن أشهَد أن التحكيم عندنا رغم سوءاته وعوراته أفضل بكثير وأعظم بكثير من التحكيم في أفريكيا ... ومهما قلت ومهما عدت فلن نجد أعظم من علي قنديل ومحمد حسام، ولن نجد في أفريكيا واحدًا في مستوى صبحي نصير، حكم المحلة الشهير!

ويا حضرة الكويرة، وقعة حضراتكم سودة أسود من قِدرة الفول المدمس، ويوم أزرق من فانلة الترسانة، يوم يلتقي الجمعان؛ جمعنا وجمع أفريكيا، يوم لا تشفع فيه فتاكة ولا حركات، ويكون الفوز يومئذٍ للعيال التي تلعب الكورة بالطول وعلى طول، وليس من أجل إضحاك ... وإدهاش الجماهير.

ويا حضرات القُراء الله يعطيكم العمر الطويل حتى تشاهدوا الكورة في أفريكيا، والله يمد في أعماركم وأعمارنا.

وداعًا بهجتي ... عمتي ... أفريقيا

ها أنا ذا خارج من أفريكيا وقلبي ينز ويفز من هَول الفراق. وحكاية ينز ويفز هذه جاء ذكرها في ملحمة أدهم الشرقاوي، وأول رصاصة جت في بزه الشمال قال يا بز لا تنز من ضربة الأندال.

وتاني رصاصة جت في بزه اليمين قال يا بز لا تبز من ضربة الخاينين!

ها هي أفريكيا العظيمة أُفارقها ولكن إلى حين ... أعدُكم يا حضرات القراء ويا حضرات القُراءات أنني سأعود إلى أفريكيا يومًا ... سأعود لأتسلطح على ظهري بجواري خزان جبل الأولياء، وأتمرغ في تراب جوبا، وأشم رائحة الغابة في مدينة واو، وأشم رائحة البارود في ستانلي فيل، وألقي بنفسي في النهر مع التماسيح على شاطئ الكونغو برازفيل ... وأتمشى افرنجي في دار السلام، وأتسنكح كما غراب نوحي في مزارع الموز في الكاميرون ... وأنا قبل رحلتي الأخيرة إلى الشاطئ الغربي لأفريكيا قُدِّر لي أن أتسنكح في ربوع أفريكيا أكثر من مرة ... وقضيْت عشرة أيام في طنجة عندما كانت دولية، عساكرها إنجليز وإسبان وطليان وفرنسيون وبرتغاليون وحاكمها خواجا وشعبها عرب شجعان جدعان أبناء طارق بن زياد الله يرحم شبابه!

ودخلت حواري القصبة الملتوية، وتفسحْت على شاطئ المضيق مع هندي غلبان مثل حالي، نرمش بعيوننا نحو الشاطئ الإسباني، وقمةُ جبل طارق ترنو إلينا!

وفي طنجة الدولية زمان كان كل شيء جائزًا وكل شيء ممكنًا وكل شيء مقبولًا، ولد جريجي صايع اعترض طريقنا ورطَن معنا بالهندي ... وبالهندي رُحنا نحن أيضًا نرطن معاه، وسحبنا إلى حي القصبة وانسحبنا نحن وراءه، كأننا جاموس في طريقه إلى المدبح، كأننا خرفان والولد الجريجي معه علو برسيم أخضر مرعرع!

ودخلنا بيت ... الله على جماله، نقوش ولا النقوش الموجودة في قصر النيل، وبلاط موزايكو لم تره عيني إلا في سراية عابدين، ورخام مرمر ولا لحم ست بيضة من بقايا الأُسر التركية المجنونة أفندم طمام!

وداخل القصر باحة ولا جنة رضوان، فسقية وفي الوسط نافورة، ومع النافورة ورد بلدي مفتح ع الغصون يا لالي! وجماعة أمريكان عواجيز مهابيل مساطيل آخر انسجام، وامرأة تعبانة آخر تعب، وحمار حصاوي مدرب، وفرجة وفضيحة وهتيكة ... والأجر دولار!

هكذا كانت طنجة وهي دولية، حشيش تلاقي، أفيون عيدان تلاقي، سلاح تلاقي ... تهريب ممكن، تعمل عصابة كما عصابة توميكس الجبار ممكن، تفتح بنك وهمي يجوز ... تدخل تخرج لا أحد يسألك ولا أحد يسأل فيك! ولكن طنجة الدولية كانت لها سوءة وكان لها ميزات.

أنت في طنجة تحس أنك في عالم بأسره، أنت في طنجة تحس أنك في مدينة مستقلة لها قوانين ولها دستور خاص، إذا كان الإنسان في مجتمع سليم يشعر أنه مربوط بدوبارة مع الآخرين ومع الأشياء ومع القوانين فأنت في طنجة تحس أنك مفكوك الدوبارة وأنه لا شيء معك ولا شيء أنت معه!

إذا صادفك رجل فأنت تستطيع أن تمر به وتستطيع أن تمر عليه! وأنت تقف لإشارة المرور أو تقف ضدها، وأنت مع القانون أو أنت عليه، كل رجل حر وكل حر مسئول عن حريته، ولكن حرية الآخرين في طنجة لا تقف عند حدود حريتي، ولكنها تمتد وتقضي على حريتي!

كل راجل في طنجة كان حرًّا يقتلني ويتركني أو يقتلني ويشرب من دمي! ولقد رأيت في أفريكيا غابات كثيرة ولكن أغرب وأعجب غابة كانت غابة طنجة الدولية! ورغم أن طنجة كانت خالية من الأشجار ومن الوحوش ... إلا أن الناس فيها كانوا أخطر وأكسر من الكاسرة! وفي تلك الأيام الخالية كانت طنجة تنقسم إلى ٣٠٠ ألف طنجاوي! كل طنجاوي منهم كان مدينة مستقلة لها علَم ترفعه ونشيدٌ تعزفه!

ولقد التقيت في فندق المنزه بطنجة على شاطئ المضيق بشاب طلياني في الأربعين من عمره كان جنديًّا في جيش موسوليني الذي لا يُهزم ولا يستسلم ولا يتقهقر، والذي يجب وينبغي أن ينتصر! ولكن في أول لقاء للجيش الطلياني مع دولة نص نص هي اليونان تراجع الجيش الطلياني إلى الخلف ... وهو لم يتراجع طِبقًا لخطة موضوعة، ولكنه تراجع والسلام، وتحول الجيش الطلياني الذي لا يتقهقر إلى ٢٥٠ ألف جندي متقهقر، كلٌّ منهم يود من أعماق أعماقه أن يعقد مع جيش اليونان صلحًا منفردًا!

وقضى الولد أمبرتو بقية أيامه في معسكر للأسرى في التل الكبير، وتعلم العربية وأتقنها وقبل نهاية الحرب نجح في الهرب ... وبعد الحرب لم يعُد لإيطاليا ولم يستقر في مصر ... رحل إلى ليبيا وعاش في طرابلس، واشتغل في شركة طليانية تصطاد سمك التونا من البحر وتبيعه لشعب ليبيا بالعملة الصعبة، وبعد سنوات طويلة لم ترق له حياة البحر فهجره إلى الشاطئ، ثم ما لبث أن مل حياة الشاطئ أيضًا فهجره إلى الجزائر يجرب حظه هناك.

وفي الجزائر العاصمة استطاع أن يفتح مكتبًا للتأمين وينصب على عدد من الناس ... وبدَّد الولد أمبرتو كل الأموال التي استطاع أن يهبرها من مخاليق الله، واحتار دليله فوقف عاجزًا لا يستطيع أن يتصرف! وذات مساءٍ جاءه الفرج من حيث لا يحسب ولا يحتسب! طرَق عليه الباب واحد خواجا كما جذع شجرة جميز في الصالحية!

وقدم الرجل الخواجا نفسه، مندوب جمعية الوجود الفرنسي، وفي أشد الحاجة إلى خواجا يجيد العربية ويجيد إطلاق الرصاص ... وسيسافر في مهمة عاجلة إلى طنجة، وتناول الولد أمبرتو مسدس ومحفظة عامرة بالأموال وطار إلى طنجة، الولد أمبرتو الغلبان كان معه أوامر بإطلاق النار على فلان وفلان وفلان! ... ولكن أمبرتو الذي له مظهر قاتل ونفسية فنان، والذي كان يومًا ما جنديًّا في جيش موسوليني الذي لا يتقهقر، وعاش حياته في طنجة ومعه فلوس، نام في ملهى الدونا على شاطئ المضيق يشرب ويحب وينفق عن سعة من محفظة الوجود الفرنسي التي كانت تراقبه.

فلما بدَّد كل أموالها طالبَته بالتنفيذ فرفض ... فراحت تتبعه، ويومًا بعد يوم أصبح أمبرتو أسيرًا مرة أخرى ولكن في ملهى الدونا! لم يعد يغادر الملهى خوفًا من أن تنطلق في ظهره رصاصة فتقضي عليه في ظلام طنجة الحالك! فلما يئست جمعية الوجود الفرنسي من خروجه من الملهى سعت إليه!

أرسلوا له ذات يوم طردًا جذابًا وأنيقًا وفتحَته البنت روزانا، وهي بنت إسبانية ككوز الذرة المشوي، لذيذة وسخنة ولها رائحة جميلة كانت لحَظِّها المهبب تحب أمبرتو الطلياني وتموت في دباديبه، وعلى روزانا الجميلة أنفق الواد أمبرتو كل نقوده ونقود الوجود الفرنسي ... فلما تأزمَت به الأحوال وحاصرته الجمعية لجأ إلى روزانا، وكانت شهمةً وبنت ناس طيبين فآوته وأكرمته وأنفقت عليه من حر مالها وحر مال المغفلين ورواد ملهى الدونا!

فلما وصل الطرد إلى الملهى فتحَته روزانا فانفجر فيها وقضى عليها، وأصبح أمبرتو وحيدًا ومفلسًا ومحطمًا كبقايا مركب صيد انكسرت وسط المحيط وحمل التيار ما بقي

منها وراحت الأمواج العاتية تقذف بها على الساحل ... عندما التقينا كانت ليلة صيف حلوة، والقمر ملعلع في العلالي، والشجر سكران يهتز، والموج نائم يتبلطح، وأمبرتو شارب لكيعانه، ليس معه فلوس، ولكن معه مسدس، ومسدس عمران وجاهز، وهو قد مل الانتظار، ويريد أن تأتي إليه جمعية الوجود الفرنسي، فتَقضي عليه أو يقضي عليها ... المهم عنده أن يحدث أي شيء، هذا خيرٌ من الانتظار القاتل!

أمبرتو المسكين أنا لا أعرف أين هو الآن، كان آخر لقاء بيننا ذات أمسيةٍ حارة في صيف ١٩٥٦م، لعله لا يزال في طنجة العربية الآن ... لعله عاد إلى الجزائر، لعله أبحر بعيدًا إلى شيلي أو البرازيل، قد كان حلم حياته أن يعبر المحيط إلى أمريكا الجنوبية؛ ليعيش بعيدًا عن الناس في هدوء!

ولكن تطوان الجميلة هي التي دخلت قلبي ... وفي العالم أماكن كثيرة يراها الإنسان فيشهق من شدة اللذة، ويتمنى على الله أن يعيش فيها ... ولكن إحساسي مع تطوان كان يختلف، عندما رأيتُها أول مرة شهقْت من شدة الانبساط وتمنيْت على الله أن أموت فيها ... بلد ولا الأحلام، والناس عصير طيِّب من العرب والإسبان، وتلال تطوان العشرة تُطلُّ عليك في النهار خضراء كما فرع لبلاب مرعرع، وتُطبق عليك في الليل ... أنوارها تتلألأ كما شياطين حمر في ليلة صيف، والشوارع تحتية كما الأنفاق ومرتفعة كما الكوبري!

ومروج تطوان زاهرة وعامرة ... أشجار الليمون تعبق في الفضاء الواسع وحقول العنب والدلاع تترامى إلى الأفق البعيد ... والبحر الأبيض المتوسط يلطم شاطئ تطوان في حنان ولا حنان العاشق المسكين! نظيفة تطوان أنظف من جيب المفلس، رشيقة ولا فرع شجرة توت. دسمة ولا فطيرة من فطير المنوفية المشلتت! وتركْت تطوان وتركت فيها قلبي، مع بنت إسبانية من الخثيرث وهو النطق الإسباني للجزيرة، والخثيرث أو الجزيرة بلد على الشاطئ الأوروبي المواجه لطنجة ... عبرَتها جيوش طارق بن زياد، أول فارس عربي جدع عبر البحر إلى أوروبا، وعبرَتها أيضًا جيوش آخر ملوك قشتالة العربية، مهزومين موكوسين يبكون كما النساء على مُلك لم يستطيعوا أن يحافظوا عليه كما الرجال ... والبنت ميراندا عصير هؤلاء الرجال جميعًا.

عربية المزاج والشكل أيضًا، إسبانية الكلام والإشارة! حلوة كما البسكويت، ناعمة كما كعك العيد، وتلاغيْنا وتصاحبْنا وعزمتني وأكلت معها البصيطلة وشربت معها الشاي! وقضيت معها أسبوعًا على شاطئ كأنني ممثل في رواية من إنتاج هوليوود، ثم طِرْت فجأةً من تطوان إلى بلدٍ آخر.

تسألني لماذا انقطع حبل الود بينك وبين ميراندا، فرغم بعد المسافة فما أسهل الخطابات ... ورغم بعد الشقة فقد سافرْت أنا بعد ذلك أكثر من مرة إلى المغرب وإلى تطوان نفسها بالذات!

أقول ذلك بصدق وبدون خداع أنا لم أكتب إليها ولم أذهب لها؛ لأنني كذاب، زعمت لها في أول لقاء أنني تاجر وأنني سأقيم زمنًا طويلًا في تطوان، لماذا كذبْت على ميراندا الحلوة لست أدري، المهم أنني كذبت عليها والسلام!

وإذا كان الإنسان حيوانًا ناطقًا في الكتب ... فعند العبد لله الإنسان حيوان كاذب! فليس في الحيوان أسد يكذب على غزالة ... وليس في الغابة فيل يكذب على جاموسة ... الكذاب هو الإنسان، أحيانًا لسبب وأحيانًا بدون سبب! وأنا كذبت على البنت ميراندا بدون سبب، والله يمسيها بالخير إذا كانت حية تسعى، والله يرحم شبابها إذا كانت ترقد الآن في قبر على قمة تل من تلال تطوان!

والجزائر ما أحلاها وما أغناها، الشوارع بعضها فوق بعض كأنها طوابق، والمدينة كلها واقفة مرتفعة شامخة كأنها عمارة ضخمة لسكنى الناس والمحلات والعربيات والترمايات! ولكن أجمل ما في الجزائر ميدان الشهداء، وهو يشبه تمامًا ميدان العتبة نصف قرن، وحي القصبة العربي يختلف عن بقية الجزائر؛ لأنه شوارع بعضها تحت بعض ... القصبة الجميلة تُثبت أن العربي له مزاج واحد ونفسية واحدة ... وأن الفوارق والحدود حدثت بفعل فاعلٍ أثيم!

نفس الشكل ستجده في تونس وفي دمشق وفي القدس وفي اليمن وفي بيروت، والناس في القصبة كأنهم في عيدٍ دائم، الملابس نظيفة والهيئة مظبوطة وكل شيء عال وتمام وآخر مزاج، والشيشة بين الأصابع، والشاي على الموائد والستات تخطر في الجلابية كما الغزال.

وفي تونس أنا لفيت ومريت من صفاقس حتى الكاف، ومن بنزرت حتى القيروان ... أشجار النخيل كما الرفيرا، وجداول المياه كما أنهار الجنة، طبيعية متجبرة ومعبرة، وهي التي أنضجَت شاعرًا عظيمًا اسمه أبو القاسم الشابي ... مات يا حول الله في ربيع العمر؛ لأن الجنة كانت للفرنسيين والنار كانت لأهل تونس، وفي القيروان مطرب مصري عجوز اسمه الشيخ أمين، العواجيز قوي لا بد سيتذكروه.

كان هنا أيام سيد درويش وداود حسني ونجيب الريحاني، وكان صاحب صوت ولا صوت الشيخ مصطفى إسماعيل ... وكانت عليه ليالي ولا ليالي طلب، وكان في حنجرته بحة ولا بحة محمد طه!

وسهرت مع الشيخ أمين في القيروان يسألني عن الحلوجي بتاع الطعمية والكاشف بتاع لحمة الراس، والحاج صبحي الحلواني الذي كان في شارع عبد العزيز ... مسكين، كل الذين كان يعرفهم ماتوا إلى رحمة العزيز الحكيم، ولا يذكر اسمًا إلا ومعه عبارةٌ كأنها أكلشيه «الله يرحمه»! ونجيب الريحاني الله يرحمه ... وسيد درويش الله يرحمه ... وبيرم التونسي الله يرحمه ... وعلي الكسار الله يرحمه ... وفوزي منيب الله يرحمه ... وحسين حجازي الله يرحمه ... وعبد الفتاح القصري الله يرحمه ... وشرفنطح الله يرحمه ... وحسن كامل الله يرحمه. الخلاصة ... الله يرحم الجميع.

آسف وزعلان الشيخ أمين؛ لأن جميع المعارف والأصدقاء يرحمهم الله، غلطان عمنا الشيخ أمين لأنه أسعد حالًا من كثيرين ... هو فقَد الأصدقاء بالموت، وغيره يفقدون الأصدقاء وهم على قيد الحياة ... وهذا ألعن! معه من أيام الذكريات جنيه ذهب مجيدي عليه صورة السلطان عبد المجيد، وعلبة نشوق ذهب من القائد الألماني روميل!

ولقد تركْت تونس والشيخ أمين ومررْت مرور الكرام على ليبيا، خطْف لهْف في طرابلس ... وخطف لهف أيضًا في بني غازي، لا أذكر في طرابلس شيئًا الآن إلا فندق المهيري على شاطئ البحر، والقاعدة الأمريكية الضخمة، ورءوس الصواريخ الموجَّهة تُطلُّ على الناس كما غربان البين!

ولكن البلد الذي لا زلْت أحن إليه هو الخرطوم، ولقعدة البلدي في أم درمان على رصيف قبة ضريح الخليفة، والصحاب والأصدقاء عبد الحميد عبد الرحمن وأحمد عبد الرحمن وعلى كابو وسبت دودو حارس مرمى السودان العظيم، وتلك الليلة التي نسيت فيها نفسي، ونسيت أيضًا أنني في السودان، والتي قمت في نهايتها منزعجًا أجري كالمجنون لألحق الأتوبيس إلى الجيزة لأنني تأخرت على العيال ... إحساس غريب لم يخالجني قطُّ في أي مكانٍ آخر ... ظننت أنني في مصر، وعلى رصيف قهوة الأزاز في السيدة زينب، فقمت أجري لأركب الأتوبيس إلى الجيزة!

وشلة شرفة الجرائد أوتيل على النيل الأزرق الغاضب الثائر الجارف كأنه سيل انطلق فجأةً وسيجتاح كل شيء! علي إبراهيم المحامي ومحجوب رئيس الوزراء وعفيفي الصحفي وشلة شباب من الجيل الثائر العظيم، والمجرن وقهوة محمد حسن الذي كان يحكم مصر ذات يوم قريب، وحديقة الحيوانات التي ليس فيها من الحيوانات إلا النادر القليل، وأم درمان الحية المشعللة الساهرة دومًا إلى الفجر ... وما أحلى وأندى الفجر في الخرطوم!

أنا ذات يوم لا بد أن أعود إلى السودان لأتمرغ في ترابها وأتنفس هواءها وأعيش مع الناس في أفراحها، وأهيم معهم على شاطئ النيل الأبيض أصطاد العجلة، وعلى شاطئ النيل الأزرق عند الكدرو أصطاد التمساح اللئيم!

ولكن الصورة التي لا تبارح خيالي صورة فرحٍ في أم درمان، ورقصة الرقبة تؤديها العروسة وهي محملة بطن كامل من الذهب والمصاغ ... والبنت العروسة رشيقة كما غزال، وعفيَّة كما محمد علي كلاي، وراقصة ولا نجوى فؤاد، وهي لا ترقص ولكن رقبتها فقط هي التي تتلوى كما تعبان طريشة في رمل الواحات!

والعريس يدور حولها معجب ومبسوط وفرحان وآخر انشكاع! وفجأةً تسقط العروسة على الأرض ويصفق الناس ... قد انتصرت البنت الشقية على العريس، وفي السودان جَمال ولا جمال أوروبا، تقاطيع عربية وسمار كما الخروب، وقوام ولا المنيكان، وأدب ولا أدب اللوردات! والحب في السودان هامس ليس له صوت ولكن له حفيف، والناس جميعًا آخر ود وآخر محبة، ولذلك تمنيت على الله ألا يحرمني لذة اللقاء بالشعب الشقيق.

أنا باختصارٍ يا سادة يا كرام أحس حنينًا عظيمًا نحو أفريكيا، عربية وزنجية، كلنا أفريكان، وكلنا أبناء قارة لها قضية ... وأتمنى على الله أن تتحقق أحلام الفتى الغاني المتحمس، فيقوم قطارٌ سريع من القاهرة إلى رأس الرجاء الصالح، ويصبح لأفريكيا عملة واحدة، وعلَم واحد، ونشيد يتغنى به جميع الأفريكان، وعندئذٍ سأركب القطار من محطة مصر وأدلدل رجلي وأكعب سيجارة بلمونت حلوة وأخطف ليلة في الخرطوم وليلة في أديس أبابا وليلة في دار السلام، وليلة في برازافيل، حتى أصل إلى رأس الرجاء الصالح ... ثم أعود على نفس الخط من جديد.

المندكورو في الخرطوم

وأصل المندكورو ماتوا سمبلة ... أخ سوري أكواني. والمندكورو — ولا مؤاخذة — هم أهل الشمال. أهل الخرطوم وسواكن وعطبرة وكل مكان وأي مكان ليس في الجنوب. وهذه العبارة نفسها قرأتها أنا في قصة قصيرة وفي مجموعةٍ سودانية منذ أعوام، بقلم صلاح أحمد وزميله علي الملك.

وأعجبتني العبارة جدًّا، وأخذْت أرددها كالذي عنده طوفة بعيد عنكم، ولم أفهم معناها بالضبط إلا عندما طرْت إلى السودان وجلسْت مع المؤلف في شرفة الجراند أوتيل، وهي لوكاندة — بلا قافية — الخالق الناطق لوكاندة شبرد القديمة، وأنا رأيت لوكاندة شبرد القديمة وجلست هناك متلفتًا كنشَّالٍ مذعور من عسكري دريسة، وكانت المناسبة أن واحد بيه من بتوع الصعيد، وهو بيه رسمي وأخوه باشا رسمي وأخته هانم رسمي، وكان — يا ولداه — يملك من الفدادين ألفين، ومن النسوان أربع، ومن الشهادات اثنتين. شهادة الميلاد وشهادة لا إله إلا الله، وكانت مواهبه عديدة، أهمها ساعة جيب ذهب بسلسلة من البلاتين، وجزمة برقبة أجلسيه آخر طراوة وآخر انبهار.

ويبدو أنه كان قد زهق من الويسكي والقعدات الطرية والنسوان المستوية، فقرر أن يصنع شيئًا جديدًا، أصدر مجلةً أسبوعية اجتماعية سياسية مهلبية يا!

المهم أخونا إياه وقع على حفنة صحفيين من قهوة الصحفيين العاطلين، واقترح اسم المجلة «الحق» كأنه كان سيقول الحق فعلًا، وكلفنا بعمل الماكيت والرسوم والكلام، واشتغلْنا نحن فعلًا، وسهرْنا الليالي طلبًا للمعالي ... ويا ميت ندامة يا جدعان على اللي حب ولا طالشي، على رأي الفيلسوف والعالم والمفكِّر سيد مخلوف شفاه الله!

وذهبْنا جميعًا بربطة المعلم إلى شبرد، فقد كان البيه صاحب مجلة «الحق» يحب الحق ويحب الويسكي في شُرفة شبرد.

ودخلنا كما متهمين من شلشلمون داخلين دوَّار حضرة العمدة، وكان البيه ما أحلاه يجلس وسط شلة، ومع الشلة ستات حلوات مقلوظات ضاحكات ... يبدو أن مجلة «الحق» كانت تصدر من أجل الدفاع عن هذه القضية، ما هي القضية؟ لا أعرف.

ولكن لماذا كل هذه الأردغانة؟ وما هي المناسبة؟ آه، فندق شبرد وفندق الجراند أوتيل في الخرطوم، وكان الخالق الناطق شبهه، ولعلني تذكرْت القصة وأنا جالس مع المؤلف يشرح لي عبارة والمندكورو ماتوا سمبلة ... والمندكورو هم أهل الشمال، وماتوا، ماتوا طبعًا إلى رحمة الله، وسمبلة يعني ماتوا بكش، ماتوا أونطة، ولكن رغم ذلك لم يهتف أحد هاتوا فلوسنا!

وآخ، يعني أخ يانا، أو آخ يا عيني ... أو آخ يا مصاريني، وهي من باب التوجع والتفجع والصوات على الشيء الذي تبكي عليه ... وسوري بمعنى آسف، أو يا أسفى، وهي كلمة إنجليزية محط، ومحط هذه كلمة جديدة أهديها إلى المجمع اللغوي، وحقوق الاختراع محفوظة للعبد لله!

وأكواني يعني إخواني، واللغة على بعضها هي لغة أهل الجنوب في السودان، وأعجبتني جدًّا كلمة مندكورو، وبما أن معناها أهل الشمال، فأنا في الخرطوم إذن مندكورو؛ لأنني من الجيزة والجيزة شمال الخرطوم، وأنا جالس في الجراند أوتيل على شاطئ النيل الأزرق، ولابس الجلباب تمام، والمركوب تمام، وها أنا ذا في الخرطوم، ويا ميت حلاوة على دي بلد.

والجو في أغسطس بارد وممطر هسة ... وهسة كلمة سودانية عربية، بمعنى هذه الساعة، ولكن اختصارًا للوقت واقتصادًا للنفقات ... اختزلها أهل الخرطوم فأصبحت هسة ... ويا هسة جانا الحبايب واحنا لم هسة، وهسة الأخيرة كلمة بلدي بمعنى حسه، يعني لم نشعر، لم نحس! وهو مَطلع أغنية جاري تأليفها الآن للمطرب شفيق جلال.

وها هو الجراند أوتيل هنا وكل السودان هنا أيضًا، حلاوة السودان أن في الجراند أوتيل تجد رئيس الوزراء وتجد الصايع والضايع مثلي ولا مؤاخذة. محجوب مع شلة في الركن، وأحمد زين وزير العدل مع شلة في الركن الآخر. وشلة عرب في الوسط، في الشلة أحمد الخواجا من مصر، وشفيق أرشيدات من الأردن، والوقواق من الجزائر، والشيخ مهدي الفنان ابن الضايعة، الذي تجري في عروقه دماء حجاوية، نسبة إلى زكريا الحجاوي ... والذي يحب الليل والناس والرصيف ... ولكن يا حسرة قلبي ليس في الخرطوم رصيف واحد يصلح لجلوس الفنانين والمتشردين إلا رصيف الجراند أوتيل، وياما أنا جلست على

هذا الرصيف ليالي طويلة مع يوسف عباس مدير الفندق، أنا أنظر للنيل وهو ينظر للفندق ... وكأن الفندق عُهدة وهو مسئول عن كل طوبة فيه.

وعندما اشتقت جدًّا لأرصفة القاهرة سحبْت أحمد عبد الحليم من إيده وجلست على رصيف النيل الأزرق ندردش بالساعات والدنيا ليل، والنيل آخر فيضان والمية — وأهل الخرطوم ينطقونها الموية — آخر حَمار وآخر حلاوة ولا البطيخ الشيليان، والتماسيح في النيل الأزرق تتلعبط وهذا أوانها!

فعند الفيضان يسبح التمساح أو يُهان ... وبما أن التمساح في الفيضان لا يستطيع أن يسبح، فهو حتمًا سيُهان! التيار يجرفه والأمواج تحدفه، وهو وحظه، يصعد على جزيرة توتي، أو يصعد في الكدرو، المهم هو منهان منهان؛ لأنه يظل على الشاطئ حتى ينتهي الفيضان، ونهار أبوه أزرق إذا وقع فيه صياد. وإذا شافه عسكري حكومة، إذا طال الفيضان ولم يجد شيئًا يأكله، فهو ميت من ظهر أموات.

ولكن لماذا شاطئ النهر صامت وحزين كما واحدة ست مات جوزها في مديرية أعالي النيل ... لماذا الشاطئ لا شمعة والعة ولا كرسي محطوط ولا ترابيزة مرصوصة. مع أن الشاطئ في الخرطوم أجمل ألف مرة من شاطئ السين في باريس، وأجمل مليون مرة من شاطئ التايمز في لندن، لماذا والسودانيون أهل لطافة وأهل ذوق ... لماذا لا يتقدم واحد ويرص كام كرسي ويشعل لمبة ويدعو أهل الليل إلى السهر والكلام، وأنا ضامن له المكسب والفلوس الكتير ... لماذا ولا واحد بتاع ساندويتشات واقف على النيل يبيع للناس ساعة العصاري وفي المغربية؟ لماذا ولا واحد بتاع ترمس ... ولا واحد بتاع أي حاجة واقف هناك؟

أنا كان نفسي أروح الخرطوم فأرى الشاطئ يشغي بالناس، أرى العيال فرحانة بالنيل تجري على الشاطئين، أرى البنات في السودان بالتوب السوداني يتمخطرن على الضفاف، إلى متى يظل الناس في بلادنا الفتيَّة تعبانة وغلبانة وكل خيرات الله وجنات الله وأنهار الله تجري تحت رجليهم؟! أنا شعرت بالجوع مرة في منتصف الليل، واشتقْت إلى التهام ساندويتش أو سانكويتش كما يقول العسكري الجارحي خفير مخبأ الجيزة الشهير! وركبْت مع الواد عبد الحميد عبد الرحمن سيارته وطُفنا الخرطوم كلها بحثًا عن محلٍّ واحدٍ فاتح فلم نجد أحدًا ولم نجد شيئًا، مع أن أهل الخرطوم ليس مثلهم يتذوق الليل ويتذوق النجوم السهرانة على كورنيش النيل!

وأنا والشيخ مهدي سهرنا مرةً وصهللنا ... وقلت للشيخ مهدي نفسك في إيه؟ وقال الشيخ مهدي الخبير ابن الناصحة: قطعة كنافة أو حتة بسبوسة عشان خاطر النبي

والصحابة والأولياء ... ولكن حفيت أقدامنا ولم نعثر على شيء، مع أن في السودان أحسن كنافة وألذ بقلاوة وأجدع حلاوة ... ولكن بالنهار! حكمة الله أن الناس في السودان أعظم الناس، والأخلاق أعظم الأخلاق، والشهامة أعظم الشهامة ... والرجولة أعظم الرجولة، ولكن الجو العام ليس مثل الناس، الفرْق رهيب وغريب ولا بد له من علاج.

الحجاب مثلًا على الوجوه والحب ما أحلاه في السودان، وتسأل أي سوداني فيقول لك الحقيقة ثم يضرب كفًّا بكف ويقول سبحان الله!

مَن المسئول إذن، ما دامت الناس راضية، وما دام على رأس الحكومة محجوب الفنان، وما دام الجميع مُصرِّين ومتفقين على تقدُّم السودان؟ أنا سألت بنت سفروتة كالقشاط، مثقفة مثل لويس عوض، ناصحة مثل العبد لله، دمها خفيف مثل الولد المضروب صلاح، أخو حضرتنا، شقية مثل الولد أكرم ابن حضرتنا، باعتبار أنه واجب علينا ذِكر العائلة كلها في هذا الكتاب.

أنا سألت البنت الشقية السفروتة الناصحة، وعندها من السن عشرين، فقالت: بصراحة نعم أنا عندي تجارب كأي بنت في أي مكان.

ولكن ...

وتوتى توتى ... وما خلصت الحدوتى

وميت عفارم على السوداني الطيب ابن الناس الطيبين، يجلس معك فيسألك كل لحظة عن الصحة والأحوال، ويسهر معك فيضحك لكل كلمة، ويفرح لكل إشارة، ويعامل كل واحد في الجلسة على أنه ظريف ولا حضرتنا خفيف ولا أبو لمعة.

وفي أيام الصفاء يبيع السوداني الطيِّب ابن الناس الطيبين متاعه من أجلك. وفي أيام الحرب يخلع السوداني الطيب ابن الناس الطيبين جلبابه ويسبقك للجبهة ... ولكن السوداني الظريف الطيب ابن الناس الطيبين حساس للغاية، وقد يغضب لأقل إساءة تُوجَّه إليه، ولذلك أنصحك يا عبد الله أن تكون حريصًا غاية الحرص وأنت تتعامل مع السوداني وأنت فاهم لهذه الحقيقة؛ لأن أي غلطة أو أي هفوة قد تؤدي إلى ما لا يُحمَد عقباه! أنا مثلًا أعتقد أن مواعيدي مثل نشرات مصلحة الأرصاد، قد أصدق فيها وقد لا أصدق. وما دمت مثل مصلحة الأرصاد فأنا لا أخاف؛ لأن أحدًا لن يحاسبني، وأنا أطلب من الآخرين عدم الخوف؛ لأني لن أحاسب أحدًا. والسوداني أيضًا مثلي ومثل مصلحة الأرصاد، ولكن يا للعجب لا يخاف إذا ضرب لك موعدًا وتأخر، ويخيفك إذا ضرب لك موعدًا وتأخرت ... لذلك يجب عليك الذهاب في المكان والزمان المحدد؛ لأن السوداني الطيب قد يحضر وأيضًا قد لا يحضر ... فإذا حضر وحضرت فيا أهلًا وسهلًا، وإذا حضرت ولم يحضر فلا بأس وكل شيء يذهب له تعويض، وإذا حضر ولم تحضر فيا واقعة سودة، سيغضب السوداني ولن تستطيع أن تتصالح معه! أنا كان معي موعد مع سيدةٍ فاضلة من طليعة الحركة النسائية في السودان اسمها خ. ص ... موعد العشاء ... في منزلها العامر ... العامر دائمًا ... بالضيوف والموائد والخيرات. وفي ذات اليوم كانت السودان كلها تغلي، مظاهرات في الشوارع، مظاهرات في الضواحي، مظاهرات في الإذاعة، والسودان كله يجلس على بركان. وبالطبع انتظرْت وبالطبع لم تحضر. والتقينا بعد ذلك وحددنا موعدًا آخر، وكان الموعد

في الثامنة، وانتظرْت حتى الثامنة والنصف ولم تحضر. والتقيت فجأةً بالملحق الصحفي حسني عبد الوهاب فدعاني على العشاء. وذهبت معه إلى قريةٍ ما أحلاها ... قرية الكدرو التي التماسيح فيها تلعب في الموية كما البط في ترعة بلدنا. وسهرْنا وانبسطْنا وانشكعْنا، وكانت سهرة ولا كل السهرات. ثم التقيت بالسيدة خديجة بعد ذلك في القاهرة فإذا بها زعلانة! ... ليه؟ لأنني لم أنتظرها في الموعد! أنا الذي انصرفت في الثامنة والنصف والموعد كان في الثامنة، وهي حضرت في التاسعة، ولكن الواجب كان يقتضيني أن أنتظر ولا أبرح مكاني حتى تُشرق الشمس، ومن يومها وهي زعلانة ... مع أنني لست زعلان!

ومرة ولد صاحبي اسمه إدوارد في مطار الخرطوم عزمني على خروف مشوي ... ومن يومها وأنا ضعيف وأصفر ومعلول وحالي عدم؛ لأن الخروف تكررت عزمته أكثر من مرة، وانتظاري طال له في شرفة الجراند أوتيل!

ولكن هل السوداني بخيل؟ أعوذ بالله! السوداني هو أكرم عربي. فكيف يكون حاله إذا علمْت أن العربي هو أكرم الناس! أنا أستطيع أن أعيش عمري كله في السودان بلا شُغلة ولا مشغلة وأنا ضامن أكلي وشربي ولبسي وسهري وكل شيء، وما دام الناس أحبوك فلك «روحي ونفسي ومواليا»، على رأي عمنا الشاعر المتنبي طيب الله ثراه، أنا كنت في لندن والبنت هالة في المستشفى يخلع الطبيب لها عظام الحوض. وتلقَّت هالة عشرين هدية، أكثرها من ناس من السودان كانوا أيضًا في لندن. ناس لا أعرفهم ولا يعرفون العبد لله. مجرد صلة، صلة بين قارئ وكاتب، وصلة على البعد ولكنها عند السوداني الطيب أعمق من كل شيء وأبقى من كل شيء. واحتجْت في لندن إلى فلوس وكدْت أرفع يافطة وأقف في ميدان البيكاديلي وأزعق بالصوت الحياني عشا الصحافة عليك يا كريم، إلهي يحنن عليك يا جورج يا ابن جونيا وآشلي ياللي تقول خد شلن لله. وفجأةً وأنا في عز الأزمة ضرب تليفون في الحجرة وقال المتحدث: محمود السعدني؟ قلت: آه ... قال بدون كلام ولا سلام: يلعن ... وأدركْت من خلال الكلام المهذَّب الرقيق أنه صديق، وأنه صديقٌ عزيز، ولكن لم أتبين على وجه التحديد، فقلت مبتهجًا يا أهلًا وسهلًا، قال: أنت فين يا ... قلت: أنا تحت أمرك موجود الآن وكل آن، خدَّام رجليك، تحضر إلينا أو أحضر إليك. قال أين العنوان؟ قلت: شارع كيت ... ورقم كيت ... وجاء الضيف الكريم واكتشفْت أنه محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان. وبما أن محجوب طويل كما شجرة الأبنوس، رقيق كما العاج، رشيق كما لاعب الباسكت بول. وبما أن العبد لله قصير كما شجرة موز، نحيف كما سيجارة هوليوود ... فقد تشعبطْت على رقبته وهات يا بوس وهات يا أحضان وهات يا سلامات ويا أهلًا

وسهلًا. ولم يكن محجوب وقتئذٍ رئيسًا للوزراء ولم يكن وزيرًا. كان يشتغل بالمحاماة، وكان في لندن هو الآخر للعلاج، وقبل أن يجلس محجوب أو يلتقط أنفاسه قال: اسمع، أنا حضرت للعلاج لمدة شهر ومعي ما يكفيني من النقود، وأنا أستطيع أن أقضي هنا أسبوعين بدلًا من شهر، ثلاثة أسابيع كفاية وأكثر من كفاية، وأستطيع أيضًا أن أقطع رحلتي الآن وأعود إلى السودان. قلت: ولكن ليه؟ قال: أنا علمت أن بنتك هالة في المستشفى وأنك تعاني من الفلَس العظيم وأنك في حاجة إلى نقود، فخُذ النقود التي معي وأنا سأتصرف، وبكيت يومها كما لم أبك من قبل. وقلت لمحجوب: لو حضرت قبل الآن بيومٍ واحد لأخذْت كل ما معك. ولكن الله كريم ويحب كل كريم، فك الأزمة وانتهى الموضوع. ولم يتركني محجوب حتى رأى كل الفلوس التي معي. وقضى معنا في لندن أيامًا هي أحلى أيام العمر! أنا مثلًا كنت واقفًا في ردهة فندق السودان أتحدث مع أحمد حمروش عن الدوسنطاريا اللعينة التي هاجمَتني فجأةً وأنشبت أظافرها في مصارين العبد لله. مجرد شكوى أنا أرددها دومًا كلما أحسسْت بمصاريني تكركب وبطني تلعب والعياذ بالله. وبعد عشر دقائق كان أخ سوداني ظريف يتقدم نحوي ومعه ربطة من جميع الأدوية التي خُلقَت للدوسنطاريا، من أول الأنتوسيد إلى الترامايسين، ولم يكن بيننا سابق معرفة ولم تكن هناك علاقة. هو سمعني فقط أشكو فَطار إلى الأجزخانة وكان ما كان. واكتشفْت أن اسمه عبد الحميد عبد الرحمن، وأنه صاحب أجزخانة، وأنه مُدمن على قراءة صباح الخير، وأن كل المحاولات التي بُذِلتْ معه قد فشلت، ولذلك قرر أن يسافر إلى بلاد برة لعله يجد مصحَّة تشفيه من صباح الخير ... وأنا مرة طلبت ذيل تمساح كان الممثل الضخم محمد رضا، الضخم حجمًا ومقامًا، قد طلبه مني، وفي الصباح كان أخ سوداني طيب يحمل على ظهره تمساح كامل يتلعبط وتركه في غرفتي باللوكاندة. أنا أقول هذا الكلام ليه؟ لأُثبت لكم أن السوداني أكرم عربي، والعرب أكرم الناس. ولكن الولد إدوار خيبه الله يضرب مواعيد وينساها، ليس من باب البخل ولكن من باب الهزار! وعندما نزلْت الخرطوم هذه المرة كان إدوار هو أول من التقيت به في المطار، فهتف شديد الفرحة: سعْدَني ... قلت: أهلًا إدوار. قال: أنا عازمك، فقلت على الفور: على خروف مشوي بالزبيب. قال: خيبك الله، قلت: ولكن هذه الأسطوانة أنا حفظتها، والخرفان المشوية المزعومة أجهدتْ معدتي، أرجوك يا عم إدوار تعزمني على شيء آخر مختلف. قال: وهو كذلك، فلتكن العزومة على خروف مشوي بدون زبيب! وإدوار سوداني من أصلٍ مصري جده ذهب إلى السودان منذ مائة عام، وما أكثر السودانيين الذين من أصلٍ مصري هناك. وأنا أقطع أن في السودان سرًّا يشدك إلى جوِّها

ويقيدك فلا تستطيع الفكاك. أنا عرفت واحد اسمه عم أحمد تاجر ونُزهي. أي أنه فاتح تجارة في الخرطوم، ولكنه لا يعمل بالتجارة، ولكنه يعمل بالنزاهة. فهو يعمل بحكمة فهد بلان «حنا للخيل والليل»، وهو كلام هايف، وإن كان صوت الواد فهد كما صوت الفهد الحقيقي في الغابة خلال الليل. عمنا أحمد المصري له في السودان ربع قرن. وهو كان موظفًا في الري، ثم استقال وتزوج من السودان وعاش في الخرطوم يشتغل تاجر ونُزهي. وفي كل عام هو مسافر إلى القاهرة ليستقر هناك، ربع قرن الآن وهو مسافر كل عام، ولكن لم يسافر قط، وأراهن أنه لن يسافر على الإطلاق، عم أحمد الذي اقترب الآن من الستِّين، والذي يتمتع بحيوية شاب في الخامسة والثلاثين، والذي كل أصحابه من شباب السودان، والذي حنا للخيل والليل يا ويل يا ويل يا ويل، أقصد يا ويل الذين يسهرون معه؛ لأنه مثل عمنا كامل الشناوي رحمه الله، لا يعتقد أن الصباح قد جاء إلا إذا توسطَت الشمسُ كبد السماء، على رأي الشيخ طاهر رحمه الله! ولقد سهرْت معه مرتين ثم اعتزلت. لم تستطع صحة حضرتنا مواصلة السهر الطويل الذي تعود عليه أحمد منذ عشرات السنين. ولقد حكى الرجل قصته في السهرة الأخيرة، وكيف أنه عاش في سيدنا الحسين، ولا يزال يذكر كل شيء هناك؛ المالكي بتاع اللبن، وابو حجر بتاع الفول، والفيشاوي بتاع القهوة، وحتى عم علي المجذوب الذي يصرخ في الليل كأنه عرسة هاجمها كلب صايع مسعور. وعندما جاء إلى السودان أول مرة كان شديد البؤس كأنه ذاهب إلى الليمان. وفي القطار إلى الشلال وفي المركب إلى الشجرة في الخرطوم فكَّر ألف مرة في أن يهرب بجلده ولكنه لم يفعل. وعامٌ كامل في الخرطوم وموقفه لم يتغير، كل صباح ينزع ورقة من النتيجة ليعرف كم يومًا مضى على وجوده في السودان؟ وكم يومًا سيبقى فيه؟ وفي كل لحظةٍ ينظر في ساعته ليرى كم لحظة مضَت وكم لحظة بقيَت له هناك.

وخلال ذلك العام الذي قضاه هناك راحت قدمُه تغوص شيئًا فشيئًا في قلب السودان. أصبح له أصدقاء وأصبح له معارف وأصبحت له قعدات! وكما يحدث في المسرح لم يكن عم أحمد يعلم أن قدمه تغوص، وأنه غاص أكثر من اللازم، وأنه أصبح جزءًا لا يتجزأ من السودان، فقد أصبحت له زوجة تعيش في الخرطوم وأصلها من عطبرة. وانتهى العام ... وحزم عم أحمد أمتعته واستعد للرحيل، وفي طريقه إلى مكتب القطارات والمراكب والسيارات زينة، ويخلق ما لا تعلمون. صادف في طريقه فيلَّا معروضة للإيجار في شارع عريض وجميل فدخل على الفور ودفع الفلوس وأصبحت الفيلَّا من نصيبه. وعاد إلى مصر ولكن في إجازة، ولم يمض شهر حتى شد الرحال من جديد إلى السودان، وفي كل عام كان ينوي الهجرة، وفي كل عام كان يقضي أجازة في القاهرة ثم يعود إلى السودان.

ومضت عليه سنوات طويلة، وترك وظيفته في الري، وافتتح محلًّا للتجارة، ولا يزال يعيش في الخرطوم، وأغلب الظن أنه سيُدفَن في الخرطوم بعد عمرٍ طويل.

وفي آخر ليلةٍ سهرْت مع عم أحمد في منزل صديق، همس في أذني وأنا أصافحه ونسمات الفجر الطرية تهب علينا وقال: سألقاك في مصر قريبًا، حاوِل أن تستأجر لي شقةً خالية لأُقيم فيها، فقد قررْت الهجرة نهائيًّا إلى القاهرة. وبالطبع لم أستأجر له شقة ولم أُكلِّف نفسي حتى عناء البحث عن هذه الشقة! لأنني أعلم أنه سيكون واجبًا عليَّ بعد عمرٍ طويل، لو سافرْت إلى الخرطوم، سيكون من واجبي أن أبحث عن القبر الذي يضُمُّ رفات عم أحمد لأضع عليه وردة بلدي حمراء. فما أكثر شغفه بهذا النوع من الورود.

رجلٌ آخر التقيت به مصادفة، في رحلةٍ خاطفة قمْت بها إلى جبل الأولياء. رجل من سلالة المصريين الذين دخلوا السودان منذ زمنٍ بعيد، وهو لم ير القاهرة أبدًا، ولم يغادر جبل الأولياء إلا إلى الخرطوم، ومع ذلك جلس معي ساعةً على شاطئ النيل الأبيض يتحدث عن قرية جده ... الشهداء منوفية، وعن عائلته التي تعيش على حرف الترعة. ولكن الغريب في الأمر أنه لم يقطع الصلة أبدًا بمسقط رأسه، جده وأبوه وهو نفسه تزوج من بنت فلَّاحة من الشهداء!

أريد أن أحذركم أيها الخلَّان من السودان ... إنها تسحبك دون أن تدري، وقد تلعنها باللسان ولكن قلبك يظل يحبها حتى يتوقف عن الخفقان.

إني أعرف ولدًا اسمه علي عزت ... طويل كما دولاب، عريض الأكتاف كما بطل أجسام، وهو في الأصل رياضي، يقفز فوق، ويجلس تحت ويفرد ذراعيه، ويشفط أنفاسًا عميقة عمق البِحار. الولد علي عزت كان مُدرس رياضة، وكانت له في السودان علاقاتٌ واسعة، وكان في الخرطوم أشهرَ من كوبري الجلاء في القاهرة ... وأنا نفسي تنفتح لأي مصري في الخارج يجري بين الناس، ونفسي تنفتح لأي مصري م الخارج يرفع شعار العلاقات الطيبة مع الناس أبقى ... نعم أبقى من تدريس النحو وتلقين العيال ألفية ابن مالك، وأنا أعرف مدرسين في الخارج من ماركة ساندويتش الجرجير، يفر من الناس كأنهم وحوش، ويفر منه الناس كأنه مُصاب بالجزام. ومن المدرسة إلى العشة، ومن العشة إلى المدرسة، ويحسب أن هذا غاية المرام من رب العباد. وأنا أعرف مدرسين في الخارج جلبوا لنا المصائب والكوارث؛ لأنهم خرجوا من هنا بعقلية شلشلمون مركز منوف. والقرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، ودبق يا عبد الله ومعاك الله! والهدف في النهاية قيراطين على ترعة جنزور. وفي سبيل هذين القيراطين يضرب بتاع القوطة بالراس من أجل نص فرنك، وينام على

الأسفلت في قسم البوليس من أجل خلاف على إيجار العشة، حتى رجال السلك السياسي المصري في الخارج لا يعرفون بالضبط ماذا يفعلون! في بلد مثل لندن مثلًا أنا محتاج لسفيرٍ محنَّك في السياسة خبير في الإتيكيت، ولكن في بلد مثل الخرطوم مثلًا أنا محتاج لولد فهلوي ابن بلد يعرف كيف يكسب قلوب الناس، ولكن للأسف الشديد ... حتى الولد الفهلوي ابن البلد عندما يرتدي بدلة السلك السياسي يصبح من السلك، والكلام يصبح من طرطوفة اللسان، والحديث من القفا، والنظرات ولا نظرات ممثل في أفلام الشجعان ... في بلد كالسودان مثلًا نماذج حلوة في السلك السياسي المصري، نموذج واحد وربما اثنين، والباقون جميعًا سهراتهم مع بعض، جلساتهم مع بعض، اجتماعاتهم مع بعض، ونادرًا ما نجد سوداني بين هؤلاء المصريين. وهو عتاب ردَّده عم شلبي نقيب المحامين. وردَّده آخرون ولهم حق. ويا سيدي في السودان نحب الراجل المفتوح ... هذا رأيهم، وأنا معهم. المهم علي عزت ليس من هذا الطراز، الولد الرياضي الطويل المشوق القوام، وكل الخرطوم تعرفه، وله عربية مرسيدس كانت في الأصل قارب صيد على شواطئ منوف. فجأةً نقلوه من السودان بعد سبعة أعوام، والولد زعلان وأهل الخرطوم في غاية الزعل ما فيش كلام، وأنا أيضًا زعلان من أجل علي عزت، ومن أجل الناس في الخرطوم.

رجلٌ آخر شيخ مسجد الشجرة، لا تجلس في مكان إلا ويسألك الناس عن هذا الشيخ ... ويا ميت خسارة! لأني نسيت اسمه، ولكن الرجل كان محبوبًا وله في السودان أتباع ومريدون، وهو رجلٌ شيخ وظريف ويعرف كلام الله ويعرف كلام الناس، وعاش في السودان زمنًا طويلًا حتى صار واحدًا منهم، ثم فجأةً نقلوه، وبعثوا بشيخٍ آخر يفهم في كيفية الوضوء، وفرائض الصلاة، والصوم، والحج لمن استطاع إليه سبيلًا، ولكن الرجل الشيخ الطيب الذي يفهم كل شيء في الدين لم يكن يفهم كل شيء في الدنيا، فأغلق باب الجامع على نفسه واستقر في أمان الله، والناس في الخرطوم لا تزال تذكر الشيخ الطيب الذي ذهب، وتصرخ عليه.

هنـــداوي